قضايا أثارت جدلاً

سماحة الشيخ ياسر عودي

عضو الهيئة الشرعية في مكتب سماحة
العلامة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

قضايا أثارت جدلاً

سماحة الشيخ ياسر عودى

عضو الهيئة الشرعيّة في مكتب سماحة
العلاّمة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله

تصدير

في ظلّ اختلاط المفاهيم، وضياع الرؤى، وفي ظلّ القلق الباحث عن المعرفة، يأتي هذا الكتاب لسماحة الشيخ ياسر عودى، عضو الهيئة الشرعية في مكتب سماحة العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله ﷺ، ليلقي الضوء على بعض ما صار عند البعض «حقيقة» لا يُمكن المناقشة فيها، كونها في رأي هذا البعض لا يمكن أن يُشكل عليها لأنها اندرجت في خط القداسة...

ومع إلقاء سماحته لهذا الضوء، أظهر وهن وضعف الكثير ممّا توهم البعض أنه حقيقة، إضافة إلى مخالفتها لرؤى المدرسة الإمامية القائمة على الرصانة الفكرية والمتانة القائمة على المنهج القرآني ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر : ٧]، حيث إنّ ما أتى به الرسول بعيد عن الغلو والخرافة، كونه ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]...

ولهذا فإنّ سماحة الشيخ ياسر عودى من مدرسة سماحة العلامة المرجع السيّد محمد حسين فضل الله ﷺ الذي يرى أن القرآن أولاً ثمّ السُّنة الشريفة، وأنّ القرآن حاكم على الأحاديث وليست الأحاديث حاكمة على القرآن، كون القرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه... مع ملاحظة ضرورة الأخذ بالسُّنة الشريفة القطعية الصدور عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والتي لم يتسلل إليها الشكّ، علماً بأننا نجد الكثير الكثير من إمكانات الشكّ والتساؤل فيما ينقله الرواة كونهم غير معصومين...

ولهذا فإنّ سماحة الشيخ ياسر عودى لم يهتم بكثرة الروايات واستفاضتها، ولا بوثاقة الرواة، لأن الكثير من الكَذَبَة والوضاعين والمغالين وأعداء الإسلام والنبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام وضعوا أحاديث مكذوبة على لسان الرواة الموثوقين من أصحاب الأئمة عليهم السلام ودسّوها في كتبهم... معتبراً أنّ الحديث الموثوق هو ما وافق كتاب الله، بناء على القاعدة التي أرساها صادق أهل البيت عليهم السلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**يا محمد** ـ في خطابه لبعض أصحابه ـ **ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به**».

نسأل الله أن يكون هذا الجهد لسماحة الشيخ عودى في ميزان أعماله يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يكون إضاءة إسلامية في خط أهل البيت عليهم السلام تبياناً للحق والحقيقة، وكسراً لحلقات الغلو والخرافة التي تحاصر بعض واقعنا...

والله الموفق

الناشـر

رمضان ١٤٣٨ هـ

حزيران ٢٠١٧ م

المقدمة

عزيزي القارئ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء، وخاتم الرسل وعلى أهل بيته الأوفياء والأوصياء وعلى جميع المرسلين والأنبياء.

أرجو منك التدبّر عند مطالعة هذا الكتاب بعقل منفتح بعيداً عن الحقد وما اعتقدتَه من موروث، لأنّني عندما ألّفت هذا الكتاب الذي هو نتاج مطالعات عميقة للتاريخ وما وجدتُه في بعض ما نعتقد وما نمارس قد ورثناه عن فِرَق كثيرة كالصوفيّة عند السُّنّة، والمغالين الذين دسّوا أنفسهم بنا، وفي حقبات تاريخية تصل إلى زمن الأئمة عليهم السلام رأيت لزاماً عليّ حتى لا أكون شاهد زور على هذا الدين ولا أكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[يونس: ٥٩]، لا أبغي بذلك رضا أحد غير الله تعالى ورضا نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام حتى لو وقف كلُّ الناس ضدّي وأنا أعلم بكلّ ما يقومون به من سبٍّ وشتم ولعن وتضليل لي ولأهل بيتي وشتمهم لوالديّ، المهم عندي أن يرضى الله لا أن يرضى الناس، المسألة عندي أن أقول ما أراه حقّاً بيني وبين الله لا ما يطلبه الجمهور، صدّق مَنْ صدّق وكذّب مَنْ كذّب، ولا أدّعي عصمة فلربّما أكون مخطئاً إذ إنّنا كلّنا

طلاب حقيقة، ولا أتعقّد من أيِّ ردٍّ شرط أن يكون موضوعيّاً وعلميّاً كما تعلّمنا من القرآن وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللّهِ﴾[يوسف: ٨٦].. **﴿وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**[البقرة: ٢١٠].

ياسر عودى

الفاتحة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَـــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

لقد أمَرَنا الله أن نقرأ في صلاتنا فاتحة الكتاب مرّتين في كلِّ فريضة وأعطى هذه السورة فضلاً فريداً لما تحويه من معارف توحيدية وأصول دينية وفروع إسلامية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧] فآياتها سبع وتُقرأ مرّتين في الفريضة وقد جعلها الله في مقابل القرآن العظيم، ولذا أحببت أن أختصر في شرحها وبيان معانيها بما يوافق هذا المؤلَّف من إبعاد شوائب الشرك وصفاء التوحيد الذي نسعى إليه.

تبدأ السورة بالبسملة التي هي شعار المسلم وعنوانه الذي يبارك فيه لسانه ويفتتح بها أعماله لتتحرّك حياته باسم الله عزّ وجلّ في كلِّ تفاصيلها إذ معنى البسملة أنّي أبتدئ صلاتي وقراءتي بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: ١] ولها فوائد عديدة ومعانٍ فريدة أذكر بعضها هنا:

أوّلاً: بسم الله ـ الذي لا إلـه غيره و **ـ الله ـ** اسم للذات المقدّسة لا يُسمّى به أحد غيره ولا يصلح لغيره عزّ وجلّ أن يُسمّى به لا حقيقة ولا مجازاً.

ثانياً: فهو الاسم الأعظم لأنّه أشهر أسمائه تعالى وأعلاها محلاً في الدعاء له والذكر به، وقد خصّصت به كلمة الإخلاص (**لا إله إلا الله**) والشهادتان فلا يُعرف توحيد المؤمن إلا به، ولا يُعرف إسلام المسلم إلا بالنطق بالشهادة به (**أشهد أن لا إله إلا الله**).

ثالثاً: يدلّ الاسم على جميع الكمالات المتّصفة بها الذات، فالله يتضمَّن الخالقية والرازقية وغيرهما من صفات الكمال، لأنَّ صفاته عين ذاته، بينما الصفة تدلُّ على مفهوم خاص، فهو اسم غير صفة، تقول إله كريم ولا تصف به.

رابعاً: وهكذا كلُّ حرف من اسمه عزّ وجلّ له معنى فلو أسقطنا الألف بقي (لله) ﴿**مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران: ١٨٩] ولو أسقطنا الألف واللام بقي(له) ﴿**مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾[البقرة : ١٠٧] ولو أسقطنا الألف واللام واللام يبقى (هو) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا ﴿**هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ**﴾[الحشر: ٢٢].

الرحمن: موجد النعمة ودافع النقمة ورحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما بكلِّ ما أفاض من الآلاء وأسبغ من النعم، فبكلمة الرحمن أفاض الوجود بكلِّ نعيمه ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[النحل: ١٨] ورزق فيها كلّ ذي روح وأعطى قوانين الوجود لكلِّ حيّ وجماد وقدّره تقديراً ورزق الكافر فيها كما المؤمن.

الرحيم: بالمؤمنين دون سواهم فاختصّهم برحمته في الدنيا بالتوفيق للإيمان والدين والالتزام، فلولا توفيقه ورحمته لما آمنّا ولما صلّينا ولا صُمنا ولا ذكرنا الله تعالى بألسنتنا، ورحيم بالمؤمنين في الآخرة دون سواهم ويثيبهم على أعمالهم ويُدخلهم جنّاته، وقد قدّم الله تعالى صفة

الرحمن على الرحيم لأنّ الرحمن لا تُطلق إلا على الله، فهي ليست من الصفات المشتركة كالرحيم فلا يُقال فلان رحمان، فقد تتّصف بها ذاته سبحانه، لكن يقال فلان رحيم، والله رحيم مع وجود الفارق بين صفة الرحيم في الإنسان الناقصة، وبين صفة الرحيم في الله التامة المطلقة، وإنّ هذه الصفة عين ذاته سبحانه لا مغايرة في البين، بينما صفة الإنسان عارضة على الذات محدودة القدرات متنقّلة في الصفات متغيّرة الحالات، وهذا لا يكون في الخالق عزّ وجلّ بل في المخلوقين.

الحمد لله رب العالمين: بعد أن تعرف أنّ كلّ ما في الوجود من فيوضات ومخلوقات وأرزاق وآلاء من الله تعالى أعطاها برحمانيّته، لا بدّ لك أن تشكر الله تعالى على نعمه، لأنّ شكر المنعم واجب كما يفرض العقل، فَمَن أعطاك عطيّة تشكره وتبادله بمثلها، فكيف بمن أفاض الوجود؟ لا بدّ من حمده والثناء عليه ومدحته والإقرار له بالربوبية أي التدبير لشؤون الكون، فالربّ هو المدبّر الذي خَلَق الخلق ولم يتركهم من دون تسديد شؤونهم وسنّ القوانين التي تحفظ استمرارهم من ماء وهواء وشمس وقمر وما إلى ذلك ووضع آجالاً لهم فـ ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[طه: ٥٠] ـ هداه إلى النظام الذي يسير عليه فلو نظرت في كلِّ مفردة من الوجود لرأيت لها تدبيراً خاصاً يؤهّلها للاستمرار إلى حين، فلو نظرت في كلٍّ من الكواكب إلى النجوم والشمس والقمر ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[يس: ٤٠] وهكذا في عالم البحار وعجائبه وعالم الحيوان وغرائبه، فللنمل قانونه المبدع في بناء مساكنه كالغرف وأماكن الفضلات وغرف العلاج والنوم وما إلى ذلك، وهذا من إعجاز الله الذي أشار إليه في القرآن عندما: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[النمل: ١٨] وقد اكتُشف مؤخراً أنَّ

في النملة مادة زجاجية بعد موتها تصبح قابلة للتحطّم فجاء التعبير مناسباً لتركيبة خلقه جلّ سبحانه، ولا يسع المقام لذِكْر أمثلة أخرى من عجائب الخلق وقوانين المخلوقات المبدعة التي تدلّ على ربوبية إله واحد دبّرها وقدّرها: ﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾[الفرقان: ٢] فكلمة الربّ تشير إلى كلِّ هذه المعاني التي دبّرها وخلق لها قوانينها على كثرتها في جميع مخلوقاته سبحانه وتستبطن التوحيد لأنّ وحدة النظام ودقّته تدلّ على وحدة منظِّمه ومدبِّره وتدلُّ على إشرافه المباشر على كلِّ ما خَلَق، فلم يُوكل أمر التدبير أو أيِّ شأن من شؤون الكون لأحد من خَلْقه كما يقال في الولاية التكوينية البعيدة عن القرآن وصفاء التوحيد.

العالمين: ربّ العالمين الدنيا والآخرة، ربّ الإنس والجنّ، ربّ العوالم، هو كذلك وكلّ تفسير ينطبق من باب المصداق.

الرحمن الرحيم: تأكيد على كونه رحمنَ بمخلوقاته ممّا أفاض عليهم من نِعَم ورعاهم في حياتهم ورحيماً بالمؤمنين كما أسلفنا.

مالك يوم الدين: بعد أن تحدَّث عن ذاته وأشار إلى وحدانيّته من خلال اسمه وتدبيره وانفراده بالألوهية والإشارة إلى هيمنته من خلال ألوهيته على الكون وتدبير قوانينه وأسبابه ومسبّباته عبر ربوبيّته وفيوضاته لكلِّ ما في الوجود من آلاء أسبغها ونِعَم ابتدعها برحمانيّته ورأفته بالمؤمنين عبر توفيقهم لطاعته، اختصّهم دون سواهم برحيميّته بالحمد له على كلّ فيوضاته ولا يبلغ مدحته القائلون كما ورد عن أمير المؤمنين حيث قال: «**الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي نعماءه العادون**»[1] .

انتقل بالكلام إلى عالم الآخرة وأنّه هو الملك في ذلك اليوم والملك

(١) نهج البلاغة، ج١ ص١٤.

صاحب الملك الحقيقي لا الاعتباري فهو المالك والحاكم والفاصل في ذلك اليوم.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: هذه الآية تحكم مسار الإنسان المؤمن بها في عقيدته وعبوديّته لله تعالى وفي المفاهيم التي لا بدّ أن يحملها في عقله وقلبه ويترجمها في أفعاله وأقواله.

إيّاك: أداة حصر قدَّمها الله تعالى على العبادة ليحصر العبادة به سبحانه، وأن لا معبود إلا هو سواء كان في العقيدة فينفي العابد لله أيّ شريك معه سواء كان من البشر كعيسى أو عُزير كما فعلت النصارى واليهود، أو من الأوثان كالأصنام التي عبدتها قريش والقبائل العربية حتى تقرّبها إلى الله زلفى ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾[الزمر: ٣] أو من سائر مخلوقاته كالشمس والقمر أو الكواكب أو غير ذلك فلا يجعل المؤمن بالله أيَّ شريك في عقيدته مع الله تعالى، أو كان الشريك في العمل فلا بدّ من نفيه، فَمَن أدخل الرياء إلى عبادته فقد أشرك بالله تعالى عمليّاً.

وقد يكون الشرك بالقول واللفظ كما في قول الإنسان، توكلت عليك وعلى الله أو قول الرجل: وحياتِك حالفاً بذلك لأنَّ الحياة لله عزّ وجلّ، وهذا ما جاء على لسان الأئمة عليهم السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[يوسف: ١٠٦][1] أو كما إذا اعتقد أحد بأنَّ هناك مع الله شركاء في العلل الطولية فيفيض من بيوتهم الرزق والموت والحياة وما إلى ذلك، كما اعتقد بعض العلماء ممّن ساروا في طريق الفلسفة والأمور العقلية التجريدية فقالوا بنظرية الفيض التي سترد

(١) بحار الأنوار، ج٥ ص١٤٨.

لاحقاً في مبحث الولاية التكوينية والتي كما نعتقد أنّ الإيمان بها يخدش صفاء العقيدة وروح التوحيد وهذا ما أكّدته الفقرة الثانية من الآية حيث حصرت الاستعانة به سبحانه وتعالى، فتقديم أداة الحصر دليل على عدم جواز الاستعانة بغير الله، نعم لو أخّر أداة الحصر بعد الفعل لكان المقصود الاستعانة به والسكوت عن الاستعانة بغيره، كقولك: أضرب إياك فممكن أن أضرب غيرك، أما عندما أقول: إياك أضرب أي فلا أضرب غيرك.

أما قول البعض إنّ الاستعانة بغير الله أي بالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لا ضير فيه فهو كاستعانتك بزيد من الناس في قضائه حاجتك فهو مردود لأنّ الاستعانة في كلِّ الأمور تكون بالله، وطلبها من الداني إلى العالي الذي يملك القدرة المطلقة ولم يعلم من آياته أنّه أعطى هذه القدرة لأحد من مخلوقاته، بل الآيات كلّها دليل على نسبة القدرة إليه في الرزق والخلق والحياة والموت وإنزال الغيث من السماء وتدبير الكون، فهو وليّ كلّ نعمة وصاحب كلّ حاجة ومنتهى كلّ رغبة[1] ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[هود: ١٢٣] والمتتبِّع لآيات القرآن يرى حصر القدرة في كلِّ شيء بالله سبحانه، ولم يعطها لأحد من خلقه حتى عندما أقدر بعض أنبيائه على الخلق أو شفاء المرضى أو إحياء الموتى، فهو من قبيل إجابة الدعاء كما في قضية إبراهيم عليه السلام عندما طلب منه سبحانه أن يريه كيف يحيي الموتى ومن قبيل (الآلة) كما في قضية عيسى عليه السلام فالأمر محصور بدليل نبوّته لا بقدرات ذاتية مستقلّة أو من باب استجابة دعاء أو كرامة أو معجزة تدلّ على نبوّته ومعلوم أنّ المعجزات لا تنزل إلا في حالة حاجة الرسالة إليها والأمر كلّه لله عزّ وجلّ فهو المؤثّر الفعلي في كلّ الأشياء.

(١) المفيد، الأمالي، ص٢٧٣.

وأمّا طلب الداني إلى الداني أو المساوي إلى المساوي فهذا من أجل استقامة الحياة، لأنّ الله تعالى سخّرنا لبعضنا حتى تستمرّ الحياة، ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ**﴾[الزخرف: ٤٣] الآيات والأحاديث على خلاف هذا التوجّه، خصوصاً عندما نرى في الحديث القدسي المروي: «**يا موسى، سلني كلّ ما تحتاج إليه، حتى علف شاتك وملح عجينك**»[١] وكلّ ما جاء على لسان الأئمة وفي خطب أمير المؤمنين عليه السلام يوحي بأنّ كلّ أمر يرجع فيه إلى الله سواء كان كبيراً أو حقيراً، وأنَّ الملجأ إليه وأنّ بيده ملكوت كلّ شيء ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[يس: ٨٣] وأنّ إليه مرجع الأمور واستقرارها واستمرارها في أصل وجودها أو في بقائها ونهاياتها. وسنشير لاحقاً في مبحث الأدعية إلى أنّ الكثير من الألفاظ المستعملة فيها شائبة الشرك كقولك يا علي مدد، أو يا فاطمة أغيثيني، أو يا علي ارزقني.

إلى هنا يكون هذا الجزء من الآيات متعلّقاً بالعقيدة وأصولها كما بيَّنا، ثم الجزء الآخر الذي هو للعبد وهو بمثابة الدعاء فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين: «**قال رسول الله: قال الله عز وجل قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل**»[٢].

﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾: ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله تعالى قال لي: **يا محمّد ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن وأنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش وأنّ الله خصّ محمّداً وشرّفه بها ولم يبشّر أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان عليه السلام فإنّه أعطاه من بسم الله الرحمن الرحيم ـ ألا تراه ـ يحكي عن بلقيس حيث قالت: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ***

(١) عدة الداعي، ص١٢٣.
(٢) عيون أخبار الرضا، ص٢٦٩.

إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[النمل: ٢٩-٣٠] **ألا فمن قرأها معتقداً لمولاه محمد وآله منقاداً لأمرهاَ مؤمناً بظاهرها وباطنها أعطاه الله بكلّ حرف منها حسنة كلّ واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها.**

أي يا ربّ اهدنا ودلّنا على الصراط الموصل إليك الذي ترضى لعبادك سلوكه والسير عليه بحيث تكون الاستقامة فيه هي الأساس من دون أن ننحرف في عقيدة أو قول أو فعل ومن دون أن نَزِلَّ أو ننجرف وراء المفسدين والغاوين والمنحرفين والعابثين بالدين والمحرِّفين لآياته وحقائقه والمفسِّرين لها بأهوائهم الذين يعجب الناس بأسلوبهم وحكاياتهم ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾[البقرة: ٢٠٤] أو الذين امتهنوا النفاق والتلوّن فأظهروا خلاف ما أبطنوا.

﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ**﴾: بنعمة الإسلام وخطّ القرآن، محمّد وآله الطاهرين الذين ختمتُ بهم الرسالات وأتممت بهم الدين.

﴿**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾: الذين حرّفوا دينهم ورفضوا نبوّة محمد ﷺ بعدما آتاهم الله من الآيات الباهرات والدلائل الواضحات كاليهود ومَن سَلَك مسلكهم والضّالين المنحرفين عن المسار الصحيح الذين جعلوا معك شريكاً في العقيدة كما فعل النصارى أو شركاء من الأوثان كما فعلت قريش أو آلهة من الإنس كما فعل المغالون بالأولياء عليهم السلام، فكلّ هذا ضلال عن خطّك وانحراف عن عقيدتك وثبّتنا يا رب على هذا المعتقد حتى نكون من الناجين والحمد لله ربّ العالمين.

شرح سورة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

وكذلك عندما نأتي إلى هذه السورة المباركة والتي تنسجم مع ما نحن فيه من صفاء وصحة العقيدة نراها كيف تؤكّد على صفاء التوحيد ووحدانية الربوبية.

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ: أي يا محمّد قُلْ لكلّ هؤلاء الذين أشركوا بالله وجعلوا لهم آلهة تقرّبهم إلى الله زلفى: إنّ ربّي هو أحد ليس له شريك، و(هو) ضمير إشارة يرمز إلى مفهوم مهم مشيراً إلى ذاته المقدّسة التي هي في غاية الخفاء، ومهما حاول الإنسان أن يصل إلى معنى الذات الإلهية أو أن يفكّر في كنهها القدسية أو يحلّق في كينوناتها الأحادية لن يستطيع ذلك لأنَّ العقل المحدود لا يدرك اللامحدود، فما يسع ليتراً من الماء لا يمكن أن تجعل فيه ضعفين، وذات الله لا تُدركها بالأبصار ولا بالأفهام ولا بالأفكار لأنّها فوق الأفكار والمخلوقات والزمان والمكان، لا يُكيَّف بكيف ولا يُأَيَّن بأين ولا يُحدُّ بمكان ولا يُقرَن بزمان لأنّه خالق المكان والزمان، وورد في نهج البلاغة: (**الحمدلله الذي أظهر من آثار سلطانه، وجلال كبريائه،**

ما حيَّر مُقل[1] العقول من عجائب قدرته، وردع خطرات هماهم النفوس[2] عن عرفان كُنْه صفته)[3].

وقد ورد في أول خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وهي من أروع خطب التوحيد وأصفاها ومَن أراد أن يتعلّم التوحيد فليأتِ إليه ولينهل من مَعينه لأنّ الكثيرين ممّن ادّعوا صفاء التوحيد ويكفِّرون الناس لأدنى شبهة ويحكمون بشركهم تراهم يسقطون أمام أحد المعاني المثارة عندهم فيفسِّرون: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾[الفرقان: ٥٩] ينقلون حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله ثم استوى على كرسيّ كهذا الذي يجلس عليه الخطيب مما يفهم منه الجسمانية وهي عن الله منفية والإيمان بها شرك بالله العظيم، قال عليه السلام: «**الحمد لله الذي لا يبلغُ مِدْحَتَهُ**»[4] فمهما قال القائل في الله وذاته، ومهما مدح حُسن صنيعه في مخلوقاته، ومهما حاول أن يُرفع مقامه في صفاته، لن يبلغ شيئاً من حقيقته عزّ وجلّ، ولن يعطيه شيئاً من حقّه سبحانه.

(ولا يُحْصي نعماءَه العادُّون ولا يُؤدّي حقَّه المجتهدون)[5] فالبشر على كثرة عديدهم لو عدّوا آلاءه سبحانه لن يحصوها والمجتهدون في طاعته ليلاً ونهاراً لا يؤدّون حقّه.

(الذي لا يُدْرِكُه بُعد الهِمَم)[6] فَهُم أهل النظر والفكر المبدع في استنباط الأمور وإن علت وبعدت هممهم في الفكر وسموّه لن يدركوا ذاته سبحانه

---

(١) مُقل: جمع مقلة وهي شحمة العين التي تجمع البياض والسواد.
(٢) هماهم النفوس: همومها في طلب العلم.
(٣) نهج البلاغة ـ خطبة ١٠٩ ـ ١٩٥.
(٤) نهج البلاغة ـ خطبة ١.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) بحار الأنوار، ج٦٨ ص٣٢٧.

ومعانيها الجليلة (**ولا يَنَالُه غَوْص الفَطَن**)[1] ومهما علت فطنة الإنسان المفكّر وذكاؤه لا ينال شيئاً من غوص فكره وفطنته في ذاته عزّ وجل لأنّ فكره محدود والله تعالى لا حدود لذاته ولا لصفاته.

(**الذي ليس لصفتِه حدٌّ محدودٌ**)[2] المقصود من صفته هنا ذاته المقدّسة التي ليس لها حدّ يحدّها لأنّها فوق الحدود، وكل محدود مركّب يحتاج إلى أجزائه وتركيباته وحيّزه أما هو سبحانه فوق ذلك.

(**ولا نَعْتٌ موجودٌ**)[3] أي لا يُدرك الله سبحانه وذاته بالرسم كما تُدرك الأمور برسمها كما نعرف الأشياء بلوازمها أو صفاتها.

(**ولا وقتٌ معدودٌ ولا أَجَلٌ ممدودٌ**)[4] فليس هناك وقت من الأوقات يمكن فيه معرفة الله كما يزعم البعض من مشاهدة ربّهم في الآخرة، فذاته سبحانه لا يمكن أن يحدّها وقت أو زمان حتى في زمان كشف الحجب عن البصر في أجل الآخرة الممدود.

(**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ**)[5] فأوّل ما يجب على الإنسان أن يعرف ربّه من خلال دينه لأنّ التقليد في الدين للآباء والأجداد باطل، أو حتى للذين ينشرون التخلّف ويدخلون في الدين ما ليس فيه من خلال الآراء الجامدة والخرافات المبتدعة والغلوّ المنهيّ عنه والمفوّضة الذين ألصقوا أنفسهم بنا وغيرهم من فرق البدع والضلال وعندما تبحث لتعرف الدين من خلال صفاء الفكر ومراجعة المخلصين من أهل النظر تصل إلى

(١) نهج البلاغة ـ خطبة ١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.

مرحلة اليقين التي تصدّق بها بوجوده سبحانه وبها أرسل مَن أرسل مِن رُسل وشرائع، ثم ترتقي في الصفاء والمعرفة إلى درجة التوحيد الخالص فتكون كلّ الأعمال لله سبحانه، فلا دين من دون معرفة ولا إيمان أو عمل من دون فهم وتدبّر، فالروايات والآيات العديدة تحثّ على المعرفة والتفكّر والتدبّر والوعي والدرس حتى أنّ بعض المرويّات عن الإمام الصادق عليه السلام جعلت «**تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة**»[1] ومشكلة الكثيرين أنّهم يردّدون ما يسمعون ولا يفكّرون فيما يُقال أو يقولون أو يقرأون.

وعندما يعرف الإنسان ربّه ويعرف قدرته وسلطانه ويصل من خلال آثاره إلى معرفته لا محالة لا بدّ أن يصدّق به، لأنّ كلّ الأدلّة دالّة على وجوده سبحانه وعلى قدرته وسلطانه، وعندما يصل الإنسان إلى هذه الحقائق من خلال الدرس والمنطق لا بدّ أن يصدِّق بما قام عليه الدليل والبرهان وانقشعت عنه غياهب العمى والبهتان ودلّت عليه الحُجّة والبيان وحتى يصل إلى أعلى درجات اليقين بالتصديق به سبحانه ليعيش صفاء التوحيد فلا يشرك بالله أحداً في العقيدة فينفي وجود الشريك عنه وفي العمل فيبتعد عن كلِّ ما من شأنه أن يكون فيه شائبة الشرك من الأقوال والأعمال الخفيّ منها كالرياء والظاهر كالألفاظ التي نستعين بغير الله فيها أو نعطي صفات الخالق للمخلوق.

وكذا كمال الإخلاص مطلوب ولا يكون إلا بنفي أي شائبة شرك من حياتك، فمن يعتقد ببعض الاعتقادات الفاسدة كتأثير فتل الخاتم في الصلاة والخرق التي تُمسح بها المقامات ونعتقد أنّها تشفي وتقضي الحاجات، وأوراد مخترعة وأدعية مبتدعة كدعاء نادِ علياً أو دعاء الأذواد وغيرها ممّا لا حصر له في المقام، سنشير إلى بعضه في كتابنا هذا فكلّ

(١) بحار الأنوار، ج٦٨ ص٣٢٧.

ما ذُكر يخدش صفاء التوحيد وبالتالي لا يصل معه الإنسان إلى كماله وهو الإخلاص له سبحانه في كلِّ صغير وكبير، ولا يصل الإنسان بكمال الإخلاص لأنَّ فيه درجات حتى ينفي الصفات عنه سبحانه لشهادة كلِّ صفة أنّها غير الموصوف وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فكلّ صفة مشهودة ظاهرة في المشخّصات التي قد يُشار بها إلى الذات تدلّ على مغايرة معها بينما العقل والدليل قام على أنَّ صفاته سبحانه عين ذاته ولا مغايرة بين الذات والصفات، فكلّ صفات المصنوعين والمخلوقين منفيّة عن ذات الخالق سبحانه، لأنَّ صفاته مطلقة لا حدّ لها وبعينها تدلّ على ذاته ولا مغايرة بينها، بينما صفات المخلوقين عارضة على الذات فضلاً عن محدوديّتها، ولو كانت من الصفات المشتركة كالحلم والعلم وما إلى ذلك فتدبر، ولذلك قال عليه السلام: «**فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلَامَ» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ..**»[1] وباعتبار أنّ المقام يضيق بنا نقتصر على ما ذُكر وإلا فإنّ هذه الكلمات القصيرة غايةٌ في التوحيد والإخلاص والعقيدة ويظهر منها بحوثٌ عظيمة.

ولنعد إلى تفسير السورة المباركة، فضمير (هو) يشير إلى ذاته المقدّسة عزّ وجلّ، ويؤيّده ما ورد في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رأيت الخضر في المنام قبل غزوة بدر بليلة، فقلت له، علّمني ممّا علّمك الله تعالى شيئاً أنتصر به على الأعداء، فقال لي الخضر** عليه السلام: **قل يا هُوَ يا مَنْ لا هو إلاّ هو. فلما أصبحت، قصصتُ على رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **ما رأيت في المنام، فقال لي: يا عليّ! عُلّمت الاسم الأعظم**[2]»، والهاء في (هو) تدلّ على الثبات

(١) نهج البلاغة، ج١ ص٢٩٠.
(٢) السيد المرعشي، شرح إحقاق الحق، ج٣١ ص ٢٣٥.

في الذات والواو في (هو) إشارة إلى الغائب عن الحواس فلمّا أشار المشركون إلى آلهتهم قالوا: هذه آلهتنا، المشاهدة بالحواس. فأشار محمد ﷺ إلى الذات الخفيّة عن الحواس بلفظ (هو) الثابتة في معناها وإنّ إلهي لا يُدرك بالأبصار ولا بالحواس وإنّه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ومعلوم أنّ كلّ صفات الكمال والجلال للذات المقدّسة يُشار إليها بهذه الكلمة.

الله: اسم للذات المقدّسة تفرّد بها، راجع ما بيّناه في شرح البسملة، ونزيد هنا قول أمير المؤمنين عليه السلام شارحاً لها حيث قال: «**اللّه، معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق ويؤلّه إليه، واللّه هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات**»[1] أي إله (بكسر اللام) الرجل بمعنى عبد وإله (بكسر الألف) بمعنى معبود وهذا الاسم المبارك تكرّر في القرآن ما يقرب الألفي مرة ولم يبلغه أيّ اسم في جلالته.

أحد: أي المتفرّد بلا نظير في العلم والقدرة وسائر الصفات في كلِّ الجهات، وقال بعضهم، إنّ (واحد) هو عدد قابل للتكرار إثنان، ثلاثة، أما (أحد) فغير قابل للتكرار ولا الكثرة لا في الخارج ولا في عالم الذهن، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**والأحد الفرد المتفرّد، والأحد والواحد بمعنى واحد وهو المتفرّد الذي لا نظير له والتوحيد الإقرار بالوحدة وهو الانفراد والواحد المباين الذي لا ينبعث من شيء ولا يتّحد بشيء**»[2].

وكلّها معانٍ تشير إلى وحدة ذاته سبحانه وتفرّدها عن النظائر والمثل والندّ والعديل، وورد أنّ أعرابياً قال لأمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: يا أمير المؤمنين، أتقول إنّ الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين عليه السلام من تقسيم القلب، فقال أمير المؤمنين:

---

(١) ميزان الحكمة، ج٣، «الله».

(٢) مجمع البيان، سورة التوحيد.

«**دعوه، فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم**» ثم قال عليه السلام: «**يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منهما لا يجوزان على الله، ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له، لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى أنّه كَفَر من قال ثالث ثلاثة؟ وقول القائل هو واحد، من الناس من يريد النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنّه تشبيه، وجلَّ ربنا عن ذلك وتعالى، وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبهة، كذلك ربُّنا، وقول القائل إنّه عز وجل أَحَدٌ، المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ**»[1].

الله الصمد: وهذا وصف آخر لذاته المقدّسة المشار إليها باسمه، وقد ذكر المفسّرون معاني كثيرة لكلمة الصمد قالوا فيها: السيد الذي يُرْجَعُ إليه في الأمر والطلب: والصمد بمعنى القصد، أي يُقْصَدُ إليه وبمعنى الصلابة في الشيء.

وقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام خمسة معانٍ لكلمة الصمد حيث قال: «**الذي لا جوف له، والصمد الذي قد انتهى سؤدده، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد الذي لا ينام، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال**»[2]. وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «**الصمد الذي لا شريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء**»[3]. وقد كتب أهل البصرة إلى الإمام الحسين عليه السلام يسألونه عن الصمد فكتب إليهم: «**بسم**

(١) مستدرك نهج البلاغة، الباب ٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٣ ص٢٢٣.
(٣) التوحيد، الصدوق، ص١٩٧.

الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدّي رسول الله ﷺ يقول: مَنْ قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار».

والظاهر أنّ السائلين لم يكونوا من أهل الفكر والمعرفة، بل كانوا يعطون رأياً في معاني الآيات على خلاف ظاهر القرآن لذلك نهاهم لأنّه مِنَ المسلَّم أنَّ مَن يتَّبع قواعد التفسير من اللغة والمحكم والمتشابه وما إلى ذلك ممّا هو معتبَر في التفسير لا إشكال فيه، بل هو واجب لكون القرآن حجّة على العباد وإلا إذا لم يكن تفسير القرآن إلا بيد أهل البيت عليهم السلام كما يزعم البعض ـ وإن كانوا أهل التفسير والتأويل والتنزيل ـ لبطل كونه حجّة ولما أمكن الأخذ بآياته، إلى أن قال: «**وأنّه سبحانه قد فسّر الصمد**، فقال: «**قل هو الله أحد الله الصمد**»، **ثمّ فسّره فقال: «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»**[1]. وقال عليه السلام: **لم يلد، لم يخرج منه شيئاً كثيف كالولد ولا سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيئاً لطيف كالنفس، ولا ينبعث منه البداوات كالسِّنَةِ والنوم والخطرة والغم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسآمة والجوع والشبع تعالى أن يخرج منه شيء وأن يتولّد منه شي كثيف أو ضعيف، ولم يولد: أي لم يتولد من شيء ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة والنبات من الأرض والماء من الينابيع والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين والسمع من الأذن، والشم من الأنف والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، والنار من الحجر، بل هو الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء، ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومُنشئ الأشياء بقدرته يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ويبقى ما**

(١) المصدر السابق.

خلق للبقاء بعلمه فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال[1]. انتهت نقلاً عن مجمع البيان.

أي يكون معنى كلمة الصمد واجب الوجود الذي لم يطرأ عليه العدم ولا يحتاج في وجوده إلى موجد، لأنّه يكون حينئذ معلولاً له، ولا يكون علّة للأشياء كلّها، ولا يلد لأنّه ليس محتاجاً في بقاء اسمه واستمرار وجوده إلى مولود يحمل اسمه، كما هي حاجة البشر، أو حتى يحملوه في كبره ويعينوه على مكاره الدهر، وليس له نظير في ذاته ولا كفؤ له في صفاته أحد على الإطلاق.

وهذه المعاني كلّها يمكن أن تكون صحيحة، لأنّها معنى كلمة السيّد المُطاع المعبود والمُغني لعباده، والذي لا نظير له ولا كفؤ، والذي لا يشبهه أحد من مخلوقاته وما إلى ذلك مما أشرنا إليه.

ولا بأس زيادة في إيضاح كلمة الصمد ما ورد عن علي عليه السلام قال: «**لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا مثال، ولا حدّ ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمّة، ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلماني ولا نوراني، ولا روحاني ولا نفساني، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا خطر على قلب، ولا على شمّ رائحة، منفي عنه هذه الأشياء**»[2].

فالتوحيد في هذه الآية شامل لكلِّ شيء وجود مطلق لا يحدّه قيد ولا شرط ولو حدّه لمُني بالعدم، ولو كان ثمة وجودان لكان كلّ واحد منهما فاقداً لكمالات الآخر وعليه يكونان محدودين، والمحدود نقص، والنقص عدم وهو منفي عنه سبحانه، وكلّ ما في الوجود دليل على وحدانيّته مع ما فيه من

(١) مجمع البيان ج٩ـ١٠، ص ٥٦٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٣، ص ٢٣٠.

التناسق التامّ والنظام الفريد والصنع البديع ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[يس: ٤٠] ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[الأنبياء: ٢٢]. وكلّ الأنبياء الذين أرسلهم الله أوّل دعوتهم إلى ربّ واحد ومعبود واحد، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول لولده الحسن: «**واعلم يا بُنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه لا يضادّه في ملكه أحد ولا يزول أبداً ولم يزل**»[1] وهذه كلّها دلائل وحدانيّته في ذاته وفي صفاته التي هي عين ذاته، ففي غيره سبحانه الصفات عارضة على الذات، أما فيه سبحانه فهي عين ذاته وفي غيره صفة العلم محدودة وفيه مطلقة لا حدّ لها وكذا أفعاله جلّ وعلا، فكلّ فعل أو حركة في الكون يعود إلى ذاته ومشير إلى توحيده فهو مسبّب الأسباب وعلّة العلل، ولذا تجب عبادته وحده لا شريك له ولا يستحقّ العبادة غيره لأنّه واهب النعم والوجود وواجب الشكر والعبادة، وعليه نوحّده في أفعاله فهو الخالق وحده: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[الزمر: ٦٢] ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[الرعد: ١٦] وهو ربّ كلّ شيء ومنظِّمه ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[الأنعام: ١٦٤] وهو مالك كل شيء ملكاً حقيقياً صرفاً ومطلقاً ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران: ١٨٩] وهو المشرّع للقوانين والشرائع ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ**

(١) نهج البلاغة، ج٢ ص٤٤.

بالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥] ولا حكم إلا له سبحانه ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: ٤٠] وعليه لا بدّ أن تكون الطاعة له لا لسواه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾[النساء: ٥٩] وهناك مباحث عديدة للتوحيد الصفاتي والأفعالي وغير ذلك يُرجع إليها في محلّها.

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد: فمن ادّعى أنّ له خالقاً فقد جعله معلولاً ترد عليه هذه الآية ومَن ادّعى أنّ له ولداً، فقد نسب إليه الحاجة وقد ردّت عليه الآية وظهر مما سبق بيان ذلك.

يقول علي عليه السلام: «**لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً**»[1] ونكتفي بهذا التفسير الرائع للأمير عليه السلام.

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٨٦.

الولاية التكوينية

تمهيد: من المواضيع المطروحة عند المسلمين موضوع الولاية التكوينية، هل هي ثابتة للمعصومين من الأنبياء والأئمة، أو لا؟ فقد نفاها كثير من علماء المسلمين وأثبتها بعض علماء الشيعة من المتأخرين للنبي والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين. وهي من النظريات الحديثة التي تخضع للدليل نفياً وإثباتاً مع الملاحظة أنّها لم تكن في كلمات علمائنا القدامى، بل كانت كلماتهم توحي بأنّها الكرامات والمعجزات من قبيل إجابة الدعاء، لأنّ الفاعل لكلّ الأمور هو الله سبحانه وتعالى، «وقد أخذت نظرية الولاية التكوينية بُعداً عقائدياً حاسماً متنوعاً في تصنيف المسألة لتبقى في دائرة المُعجزة، وفي توسيعها لتشمل كلّ الكون، حتى أنّ البعض تصوّر أنّ الله تعالى فوّض للأنبياء والأئمة عليهم السلام أمر التصرّف بالكون في حركته الخفيّة والظاهرة، بحيث إنّهم يملكون القدرة على تغيير ما يريدونه من دون أية قدرة ذاتية مُستقلّة، بل من خلال القدرة التي مكّنهم الله منها وأعطاهم إياها»[1].

وقد تصوّر هذا البعض أنَّ التقيُّد بإذن الله الوارد في الآيات أو عدم الاستقلالية الذاتية أي عدم كونهم شرائط العلّة الفعليّة، إذ فعليّته تعالى لا قصور فيها، تُبعدهم عن الغلوّ والشِّرك في المقام من دون أن يلتفتوا

(١) السيّد فضل الله، من وحي القرآن جزء٦، صفحة ٢٦.

إلى هذا المحذور، فالغرض من كونهم كما قالوا وسائط في الفيض أي إنّهم وسائط قابلية المحل والموجودات للإفاضة بمعنى أنّ الموجودات فيها قصور من ناحية وجودها فلا تكون قابلة للفيض إليها إلا بتوسيط وجودهم عليهم السلام لأنّها ليست لها أهلية الصدور المباشر من المجرد لكونها مادّة والمادة لا تصدر إلا عن المادة فخلق الله تعالى العقل الأول أو النور المحمّدي المنبسط الجامع لصور الموجودات ومنه ترشّح الخلق، لا لقصور في شرائط الفعليّة، إذ الفاعلية والعليه لله سبحانه وهذه في الحقيقة لها بُعد فلسفي نتعرّض له باختصار خلال البحث.

والولاية المبحوث عنها هنا بمعنى السلطنة والتصرّف المطلق وخرق ناموس الطبيعة وهذا ثابت لله تعالى، قال تعالى: ﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾[الكهف: ٤٤]. بمعنى ولاية التدبير الساري في كلّ شيء، وكلّ شيء ملك تدبيره سبحانه وكلّ الأمور تعود إليه تعالى، وإليه يرجع الأمر كلُّه، وفي سورة الكهف ﴿**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً**﴾[الكهف: ٢٦] ولمزيد من الإيضاح نقول:

القسم الأول

الولاية

عُرّفت بأنّها الإمارة والسلطنة لغةً كما عن السيوطي وغيره واصطلاحاً هي سلطنه على التصرّف بالشيء بنحوٍ خاصّ كالتصرّف بحال القُصّر والولاية عليهم لسد النقص عندهم. وولاية الفقيه: تدبير شؤون الأمّة ممّا ليس لها أهلية الاستقلال فيه.

وولاية الحاكم: سلطنة وتدبير دولته.

ولا طائل من البحث اللغوي والاصطلاحي أكثر من هذا في المقام، لنقول إنّ الولاية التكوينية تعني السلطة على هذا الكون، حيث يخضع جميع ذرّاته لمن له الولاية خضوعاً تكوينياً بحيث يستطيع صاحبها تغيير أنظمة الكون وتبديل المغرب بالمشرق ورفع الرزق، وإطالة العمر أو قصره وغير ذلك.

وقد تعني أيضاً أنّ المعجزات فعلٌ يُنسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام وإن كان بإقدارٍ من الله تعالى، مع بقائه على التأثير والفاعلية كما هو الاحتمال الثالث للتفويض الذي يدور حوله النقاش.

والحاصل لا نتصوّر الولاية التكوينية إلا بمعانٍ خمسة حسب الاستقراء، فإمّا أن تكون بمعنى التفويض المطلق يعنى استقالة الله تعالى من إدارة

الكون وإعطائه للمعصومين وهذا شرك واضح، أو التفويض بمعنى كفّ اليد عن إدارته وإعطائها للمعصومين، أو بمعنى إعطائهم القدرة على التصرّف مع بقائه على الفاعلية والتأثير، وهذا ما ذهبوا إليه، فهذه ثلاثة، والرابع بمعنى سدّ النقص الموجود في الكون من قبل مَنْ ولاّهم الله تعالى، وهو بمعنى أنّ الله تعالى ترك شيئاً ناقصاً في الكون وأراد سدّ هذا النقص من خلال ولاية الأنبياء والأولياء عليه لسدّ النقص فيه، كما في ولاية الأب على القاصرين من أولاده، فدورهم دور تنفيذيّ وإداريّ.

والخامس بمعنى الوظيفة، أي إنّهم موظّفون لإدارة الكون كما الملائكة فهذه معانٍ خمسةٌ، ولنبدأ من الأخير أي الخامس، أي أن تكون الولاية بمعنى الوظيفة، فكما أنّ الملائكة عليهم السلام هم موظفون عند الله تعالى في بعض خصائص الكون مثل قبض الأرواح وتقسيم الرزق وغير ذلك كما تشير إليه بعض الآيات... كقوله تعالى: ﴿**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً**﴾[الذاريات: ٤] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾[السجدة: ١١] وقال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾[النحل: ٣٢]، فكما هؤلاء موكلون من الله بتدبير بعض الأمور كذلك المعصومون والأئمة موكلون بتدبير الكون، أو قد يُقال إنّ الولاية لهم تكون بمعنى الرتبة إذ إنّ الله جعل لهم هذه الرتبة العالية تشريفاً لهم، هي أشبه بالحقائب الوزارية التي بلا وزارة وللتشريف إذا صحّ التعبير.

وقد يُتصوّر لها معنى آخر وهو إجابة الدعاء والكرامة للنبي أو الولي وهذا لا خلاف فيه، لكن المقصود من كلامهم غير ذلك، ولو كان مقصودهم ذلك لما كان خلاف بينهم أبداً، لأنّ جميع العلماء من كلّ المسلمين، بل من غير المسلمين يعتقدون بإجابة دعاء الأنبياء والأولياء وكرامتهم.

أمّا التشريف فإنّه لا يتمثّل في إعطاء القدرة من دون قضية أو توسيع السلطة من دون مسؤولية، والله تعالى يشرّف أنبياءه من خلال رفع درجتهم عنده، وتقريبهم إليه وعلوّ مقامهم في الآخرة، أما الدنيا فلا قيمة لها عند الله سبحانه، فقد ورد في الحديث: «**أنّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة**»، ولذا لم يجعلها أجراً لأوليائه بل أتاح الفرصة فيها لأعدائه.

فلا نجد ضرورة تفرض إعطاء الولاية التكوينية المطلقة لهم إلا بالمقدار الذي تحتاجه الرسالة (وهذه هي معجزات الأنبياء) في أصعب أوقات التحدّي مع احتمال أنّها ليست قدرتهم، ولكنّها قدرة الله بصورة مباشرة، ثم ما معنى هذه الولاية التي لا دخل لها في حماية رسالتهم، فلم يستعملوها في دفع الخطر عنهم ولم يتحركوا بها في الانتصار لرسالتهم وذلك من خلال قراءة التاريخ الصحيح كله.. هذا مع ملاحظة أنّ الدنيا لا تساوي عند الله تعالى شيئاً وهذا ما عاشه أهل البيت عليهم السلام وذلك ما ندركه في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ولو أراد اللـه سبحانه لأنبيائه ـ حيث بعثهم ـ أن يفتح لهم كنوز الذّهبان ومعادن الْعقيان، ومغارس الجنان، وأنْ يحشر معهم طير السماء، ووحوش الأرضين لَفعل. ولو فعل لَسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلّت الأنباء، ولَما وجب للقابلين أجورُ المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين**» (لأنّ المسألة تصبح بقوّة ذلك، النبي في استطاعته بفعل أيِّ شيء وحينئذ يكونون مضطرين مقهورين للإيمان به، فأيُّ أجرٍ في المقام للعامل والعابد بالقوة، أو أيُّ ثواب للمؤمن على إيمانه وصبره على البلاء، لأنّ ذلك النبي يرفع عنه البلاء بما أُوتي من مال الأرض والشفاء من الأمراض وما إلى ذلك) **ولكن الله سبحانه وتعالى جعل رسله أُولي قوة في عزائمهم** (أي في

إيمانهم بالله تعالى الذي يدفعهم إلى تحمّل المشاق في سبيل الدعوة إليه) **وضَعَفَةً فيما ترى الأعينُ من حالاتهم** (لأنّهم بشر) **ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام وعزّة لا تُضام** (فلا يخضعون للبلاء ولا يعيشون الفقر والفاقة والألم) **ومُلْك تمدُّ نحوه أعناق الرجل... لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وأَبْعَدَ لهم من الاستكبار ولأَمِنُوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم**»[1].

أقول إنّنا لا نجد أهل البيت عليهم السلام قد استعملوا مثل هذه الولاية حيث نجد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد خسر أكثر من معركة، وواجه أكثر من تحدٍّ بالعقل والمنطق لا بالولاية، وقضى الإمام علي عليه السلام شهيداً، ولم يدفع عن نفسه كلّ الأخطار والأهوال التي حدثت له وإبعاده عن حقّه وما إليه، وهكذا الحسن والحسين عليهما السلام، وكربلاء أكبر شاهد، فأين هي هذه الولاية؟ ويظهر من هذا فساد القول الخامس بمقارنتهم بالملائكة فإذا كانت بعض الملائكة موظفين لتصريف الرياح، أو قبض الأرواح، أو ما شاكل، فبطريق أولى أن تكون لهم، فإنّ في ذلك إسقاطاً لمرتبتهم وتنزيلاً لشأنهم صلوات الله عليهم، إضافةً إلى عدم ورود ما يدلّ على أنّهم كالملائكة بهذا المعنى فلا دليل في البين كما هو الدليل على وظيفة الملائكة، بل إنّ مهمّتهم في تبليغ الرسالة أعظم وأشرف مهمّة موكولة إلى مخلوق، على أنّ الكون يتحرّك في ضوء السُّنن المودَعة فيه والتي أرادها الله أن تحكم كلّ نظامه كما يقول السيد الأستاذ فضل الله رحمه الله.

ثم لماذا تكون هذه الولاية لهم لقصور جعله الله في الكون؟ أم لحاجة منه سبحانه؟! وهو مفاد المعنى الرابع للولاية وهو سدّ النقص.

والأول: باطل لأنّ الله أعطى كلّ شيء نظامه وهداه إليه، قال سبحانه:

(١) نهج البلاغة، ص٤٥٧ ـ ٤٥٨.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان: ٢]، وكثير من الآيات التي تنفي أيَّ قصور في الكون. فالله تعالى عندما أعطى الولاية للأب على القاصرين وللفقيه في بعض الشؤون إنّما هي من جهة سدّ النقص الموجود عند القاصرين والأمة، والسؤال: ما هو النقص في الكون ونظامه ليُعطوا مثل هذه الولاية؟ وأما الثاني فواضح الفساد لنسبة النقص إليه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

الردّ على المعاني الفلسفية المُتصوّرة من التفويض

وأما القول الأول بالتفويض فهذا كفر محض وشرك بالله العظيم إذا كان من قبيل التفويض المطلق، أي إنّ الله خلق محمّداً وعليّاً وفوّض إليهما أمر الخلق فأحييا وأماتا وخلقا ورزقا وما إلى ذلك، أو بمعنى كفّ اليد عن التصرّف في الكون أي إنّ الله لم يعتزل عن التصرّف بالكون مطلقاً، بل كفّ يده عن التصرّف وأوكله إليهم عليهم السلام وهو التصوّر الثاني وهذا أيضاً من الشرك الواضح. والمعنى الثالث للتفويض محصور في دائرة المعجزة، لأنّ هذا النحو من الإقرار لدرء المفسدة العظمى عن الرسالة والرسول، ولا قائل به في المسلمين خارج نطاق المعجزة والقرآن كلُّه على خلافه، فالله تعالى لم يستقلْ من سلطانه بعد ما خلق الكون وفوّض أموره إلى بعض خلقه ليأخذوا دوره وهذا واضح الفساد عقلاً فلا نطيل. وأما نقلاً فالروايات كثيرة، أُورد لك رواية عن الإمام الرضا عليه السلام رواها في الاحتجاج عن يزيد بن عمير سائلاً له عن الجبر والتفويض ـ الرواية طويلة ـ إلى أن قال: «**من زعم أنَّ الله فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض والقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مُشرك**» ولا نعلِّق عليها لوضوحها.

القسم الثاني

أدلّة القائلين بالولاية التكوينية

نستعرض في هذا المختصر أهمّ الأدلّة بما يسع له المقام.

الأول: قوله تعالى: في قصة عيسى عليه السلام آية ٤٩ من سورة آل عمران:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[آل عمران: ٤٩].

قد يُدَّعى ظهور هذه الآية في صدور المعجزة منه من خلال جهده الذاتي الذي اكتسبه بإذن الله، فنلاحظ في الآية أنّه ينسب الخلق إلى نفسه بقوله: (**أنّي أخلق**)، وكذا في الباقي حيث تمّ خلق الطير وإبراء الأكمه وإحياء الموتى وأنّه ينبّئهم بما عندهم بجهده الشخصيّ وفعلِه، لكن بإذن الله. وهذا دليل تصرّفه وقدرته وولايته على الأمور تكويناً.

وبرأي هؤلاء أنّ الأئمّة عليهم السلام أفضل من عيسى وهي ثبتت له، فبطريق أولى أن تثبت لهم.

الثاني: ما ورد في قصة سليمان عليه السلام حينما طلب منهم أن يأتوه بعرش بلقيس فقال العفريت: **﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ**

أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩]، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠] وقيل في بعض التفاسير بناءً لروايات إنّ القائل هو آصف بن برخيا وزير سليمان. ووجه الاستدلال أنّه إذا كانت لآصف هذه القُدرة على نقل العرش بهذه السرعة الفائقة نقلاً تكوينياً من مكان إلى مكان، فبطريق أولى أن تكون هذه الولاية للأنبياء والمعصومين عليهم السلام خصوصاً أهل البيت عليهم السلام لأنّهم أفضل منه، واستدلّوا بآيات أخرى لا يسع المقام إليها، وهي واضحة الدلالة على كونها دعاءً أو لطفاً إلهياً كما استجاب الله تعالى طلب إبراهيم عليه السلام وأمره بذبح الطيور وتقسيمها إلى أجزاء لتأتيه سعياً ليشاهد قدرة الله تعالى في الإحياء، فدوره فقط هو الذبح والتقسيم وليس الإحياء، وهذا لا يدلّ على الولاية التكوينية ومثله في استجابة دعاء نوح عليه السلام عندما دعا على قومه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر: ١٠].. وجاء الطوفان.

وكما في قصة موسى عليه السلام في تحويل العصا إلى ثعبان وإخراج يده البيضاء من غير سوء، فإنّه لم يُبدِ أيَّ جهد في المقام، بل نرى أنّه مجرّد واسطة ظاهرية، والمؤثّر الفعلي في جعلها بيضاء أو تحوّل العصا إلى ثعبان. أو نار إبراهيم عليه السلام التي تحوّلت برداً وسلاماً على إبراهيم، أو إحياء الموتى أو خلق الطين كهيئة الطير أو ما إلى ذلك، فكلُّ هذه الأمور صوّرها وأحياها وقدّرها الله عزّ وجلّ بلا استقلالية منهم عليهم السلام في المقام أي لم يقدروا على فعل ذلك مستقلاً. فضلاً عن أنّ هذه معجزاتهم لإثبات نبوّتهم أو استجابة لدعائهم، وليس قدرة منهم على ذلك، ولذا لا يُستدلّ بإجابة الدعاء أو ثبوت المعجزة الدالة على النبوّة على المدّعى في المقام وهو الولاية التكوينية، وقد استدلّوا بآيات أخرى تشابه مناقشتها هاتين الآيتين.

الثالث: الدليل الروائي... منها ما ورد في الزيارة الجامعة: «بكم فتح

الله وبكم يختم وبكم يمحو الله ما يشاء ويثبت... وبكم تنبت الأرض أشجارها وتخرج الأرض ثمارها وبكم تنزل السماء قطرها ورزقها...» إلخ.

وجه الاستدلال، أنّ الله تعالى إذا قدَّر أمراً فإنّه يهبط أولاً إليهم عليهم السلام ويخرج من بيوتهم إلى الدنيا، ومعنى هذا أنّهم وسائط فيضه في جميع أموره سبحانه لما لهم من رتبة الولاية عنده.

الرابع: ما ورد عنهم من أنَّ الأرض ملك لهم عليهم السلام وأشباهها من الروايات المتناقضة في دلالتها الضعيفة السند.

فإذا كانت الأرض مُلكَهم مُلكاً حقيقياً لا اعتبارياً، فإن ذلك يؤدّي إلى تصرّفهم في ملكهم كما يشاؤون تصرّف الملاّك في أملاكهم، وليس هذا إلا تسليطاً تكوينيّاً.

الخامس: ما ورد في كتاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لمعاوية: «نحن صنايع الله والخلق صنايع لنا». وهذا واضح دلالته بظاهره على المطلوب في التصرّف بما صنعوا.

وهناك روايات أخرى تفيد المعنى نفسه وتناقش بالطريقة نفسها التي ستعرفها في الفصل الثالث تركناها هنا للاختصار ولأنّها من وادٍ واحد.

السادس: استدلّوا بوقوعها فعلاً من المعصوم كحادثة ردّ الشمس لعلي عليه السلام وليس هذا إلا تصرّفاً بالكون وقوانينه، وكقلع باب خيبر وما إلى ذلك.

القسم الثالث

مناقشة أدلة الولاية التكوينية

لا بدّ قبل البدء بالمناقشة إلفات النظر إلى ما ورد في كتاب من وحي القرآن[1] وهذا مختصره حيث قال: المناقشة من ناحيتين:

الأولى: جانب الإمكان: ولا إشكال في إمكان جعل الولاية التكوينية من ناحية المبدأ لأنّ الله القادر على الوجود كلّه يملك أن يُمكّن بعض خلقه بعض مواقع القدرة ووسائلها، فهو الذي جعل لهم القدرة في دائرة إنسانيتهم وأوضاعهم من خلال ما أوكل إليهم من مسؤوليات ملقاة على عواتقهم والسعي في حاجاتهم، فمَن له هذه القدرة له أن يوسّع دائرتها لمهمّة جديدة في الكون، ويبقى الله تعالى مسيطراً ومهيمناً على الأمر كلّه، فلا يملك أحد إلا ما يملكه الله تعالى لأنّه المعطي والمانع وليس في هذا المبدأ منافاة لتوحيده.

الثانية: جانب الحاجة والضرورة إلى ذلك، لماذا يجعل الله تعالى الولاية التكوينية لهم، فهل هناك حاجة مهمّة متوقّفة في إثباتها على ذلك بحيث يملكون القدرة الشخصية الفعلية ليصدر الفعل عنهم؟ أم هي قضية تشريف إلهي كما أسلفنا في الفصل الأول؟ هذه الأسئلة تطوف في الذهن،

(١) من وحي القرآن، المرجع السيد محمد حسين فضل الله، ج٦ ص ٢٧.

لكن ليس هناك ما يؤكّدها، فنحن نعلم أنّ دور الأنبياء تبشير وإنذار وتبليغ وإذا كان لهم دور تنفيذي فإنّهم يتحرّكون من خلال الوسائل العادية، فإذا جاء التحدّي الكبير الذي يحوِّل الموقف إلى خطر كبير على الرسالة والرسول، فإنَّ المعجزة حينئذٍ تتحرّك لتحفظ توازن الرسالة وموقع الرسول وتصدم واقع الكافرين صدمة قوية قاهرة تردّ كيدهم وتُودي بهم إلى الضعف والهزيمة كما في طوفان نوح عليه السلام ونار إبراهيم عليه السلام وعصا موسى عليه السلام أو يده البيضاء وفلق البحر، أو إبراء الأكمه والأبرص لدى عيسى عليه السلام وقرآن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتنتهي المسألة عند هذا الحدّ وتعود الرسالة إلى مجراها الطبيعي فيتحمّل النبي فيها الصراع ويعاني الألم ويواجه التحدّيات.

مناقشة الأدلّة

مناقشة الدليل الأول: يرد بأنّنا نستوحي من كلمة **(بإذن الله)** في الآية التي استدلّوا بها ووجدوا فيها ضالتهم أكثر من أيِّ دليل آخر أنّ هذه الكلمة توحي بأنّ دور عيسى عليه السلام هو دور الآلة التي تتحرّك لصنع شيء كهيئة الطير وتنفخ فيه، فيبعث الله فيها الحياة، وهكذا يضع يده على الأبرص والأكمه والميت فتحدث العافية، وتنطلق الحياة في الأخير من خلال إرادة الله لا إرادته هو، فهذه الكلمة لا تعني معناها الحرفي اللغوي بل معنى القوة التي تنطلق لتحقق النتائج التي لا يملك عيسى عليه السلام أية طاقة خاصة به فيها ثم إن هذه معجزته التي تدلّ على نبوّته في تحدي الآخرين، ولا تصلح المعجزة أن تكون دليلاً نتعدّى بها إلى غيرها في إمكانية خرق النواميس الطبيعية متى شاء ولغير ضرورة تقتضيه، لأنّ التعدّي عن المورد يحتاج إلى دليل، وأما كلمة بإذن الله سواء كان الإذن بمعنى الأمر منه سبحانه تكويناً أو تشريعاً، أو كان بمعنى الفعل، أي بفعل الله سبحانه، فإنّهما يدلاّن على

انحصار الأمر والفعل به سبحانه، وأنّ النبي مجرّد آلة لتحقيق الهدف لا علّة في الإيجاد بإذنه، بحيث يكونون علّه عرضية لا طولية، فهذا شركٌ بالله العظيم، لأنّه بمعنى التفويض كما أشرنا إليه.

الدليل الثاني: أما الآية الثانية: قالوا إذا كان عند آصف بن برخيا علمٌ من الكتاب، وفسّروه بأنّ لديه حرفاً من اسم الله الأعظم، فاستعمله لنقل العرش، فبشكل أولى أن يكون مع الأئمة أحرف من اسم الله الأعظم وأنّ علياً عليه السلام عنده علم الكتاب كلّه فضلاً عن أنّهم عليهم السلام أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

والردّ من وجوه

أولاً: هل يلتزم أحد بأنّ للعفريت ولاية تكوينية لأنّه يستطيع أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه لأنّه قال: ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾[النمل: ٣٩]

ثانياً: إنّما جاء آصف بالعرش، لأنّه دعا الله سبحانه، وكان الدعاء سبباً في إتيان الله تعالى لعرشها، فالذي جاء بالعرش هو الله بسبب دعاء آصف ليكون تكريماً له على وصايته لسليمان، فماذا يملك هذا الشخص؟ هل اسم الله الأعظم؟ أو من علم الكتاب..؟ اللوح المحفوظ؟ أو نوع آخر يوحي بالعلم الخفي الذي يملك أسرار الأشياء فيتيح له التصرّف فيها هو والعفريت، أو غير ذلك؟ فهذه من النعم التي أعطاها الله تعالى لسليمان ومن المُلك الذي طلبه من الله لإقداره على هذه الأمور. فما قام به آصف ليس معجزة لخرق نواميس الكون، وإنما هو دعاء استجابة الله في تلك الواقعة فقط، فلا يمكن الاستدلال بهذه الآية على المدّعى.

إضافةً إلى إثارة تساؤل، وهو أنّ الله أعطى مُلكاً لسليمان لا ينبغي لأحد

من بعده ـ كما قال القرآن ـ مما يعطي النبي محمداً ﷺ وهو أفضل الخلق وسليمان من الأنبياء العاديين وليس حتى من أولي العزم الذي منهم محمد ﷺ، فإذا كان لسليمان إقدارٌ على هذه الأمور يكون دليلاً على أفضليته على سائر الأنبياء، فهل يلتزم أحد بهذا النحو من الدليل؟ ولذا إذا أعطى الله تعالى أحداً من أنبيائه أو أوليائه إقداراً معيّناً على أمر في قضية خاصة، لا يعني أنّه أعطاه ولاية عليها وتصرّفاً متى يشاء ليُستدلّ بذلك.

كما لا يدلّ ذلك على أفضليّته على مَن لم يعطِ؟ والعكس صحيح، إذا لم يعطِ أحداً من الأنبياء أو أهل البيت عليهم السلام ممّا أعطاه الله لآصف أو غيره لا يدلّ على دنوّ منزلتهم، والحاصل ما جرى مع آصف ليس من المعاجز ولا الولاية التكوينية، وإنّما هو طلب ودعاء وبمنٍّ من الله ولطفه كانت الاستجابة وهذا ممكن الحصول عليه عند أيّ وليّ من أولياء الله حيث يمكن أن يستجيب الله تعالى دعاءه كرامة له وتفضّلاً عليه. مع ملاحظة أنّ آصف وزير سليمان وإذا لم يكن له قدرات تفوق قدرة الجنّ وغيرهم فسيكون محلّ استهزاء ممّن في مملكة سليمان عليه السلام، فهي قضية في واقعه لا يُتعدّى بها إلى غيرها. وثانياً: إذا كانت الولاية بمعنى استجابة الدعاء والكرامة كما في كلمات الماضين من علمائنا فالجميع متّفقون على وقوعها، وحينئذ لا تختص بالمعصومين بل تتعدّاهم إلى كل مؤمن بحسبه، فإذاً، القضية لا تعدو كونها استجابة دعاء، ثم هناك أمر ربما يكون ذلك علماً عندهم، نجهل به، فقلنا عنه إنّه معجزة، ألا ترون أنّ أهرامات مصر نظر إليها العالم على أساس إعجازي قبل معرفة أسرار بنائها، وهكذا إذا اطّلعنا على تلك العلوم لعرفنا سرّ مجيئه بالعرش مثلما كان يظنّ الناس سابقاً أنّ التلفاز والراديو معجزة حتى أصبح لا يمثّل شيئاً. بعبارة أخرى علمٌ علّمه الله لهم، فعرفوا سرّ ما جهلناه أو أنّه كما قلنا إجابة دعاء. هذا كلّه مع التسليم أنَّ المقصود منه هو آصف وليس جبرائيل كما في بعض

المرويات، فضلاً عن أنَّ عنده علماً من الكتاب لا تدلّ على الاسم الأعظم، بل هي صفة له كالعفريت، فلا تدلّ على أنَّ عنده شيئاً من أحرف اسم الله، ولا إشكال عندنا على أنَّ عليّاً عليه السلام عنده علم الكتاب، وإذا سلّمنا بصحّة هذه المرويات، على أنّ مَنْ عنده حرفٌ من الاسم الأعظم يتصرّف بالكون، لا بدّ أن يُردّ علمُها إلى أهلها، خصوصاً وأنَّها معارضة بروايات، تكشف أنّ اسم الله الأعظم هو كلمة (الله).

مناقشة الأدلّة الروائية

الثالث بالنسبة لما استُدلّ من فقرات الزيارة الجامعة حيث يُناقش فيها سنداً فلا يأخذ بها لضعف السند، ومتناً حيث تعارض جملةٌ من فقراتها القرآنَ الكريم والروايات الصحيحة حيث إنَّ الآيات الكريمة أكّدت أنَّ الله هو الذي ينزل الغيث من السماء، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [الشورى: ٢٨] ﴿**وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[الروم: ١٩] ﴿**فَانظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الروم: ٥٠] وقال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٩] وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحج: ٦٥] وهو الذي بيده الأمر كلّه ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٨] وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي دلّت على فعله المباشر تعالى وإدارته للأمور لا بواسطة. وإنّما صحّحوا الاستدلال بها من جهة أنّهم وسائط الفيض وهذه فلسفة يونانية أُدخلت إلى الإسلام وأُلبست ثوبه، والقرآن على خلافها، فالله تعالى هو الذي خلق كلّ شيء ثم هداه إلى نظامه الذي وضعه له وقدّر له قانونه الذي جعله فيه من المخلوقات،

وأما وسائط الفيض وعدم أهليّة صدور المادّة من المجرّد مباشرة، وأنّهم ليسوا وسائط في الفعليّة، أي الطولية ليثبت الشرك، بل في الفاعلية، أي في سلسلة العلل العرضية، فكلّه لعب على الكلام وخلاف القرآن والعقل والنقل إضافةً إلى ما قلناه عند بحثنا حول هذه الزيارة مضافاً إلى أنّ الفلسفة عندما أُدخلت إلى هذه المعاني خرّبت بعض مفاهيم الدين وأخرجته عن معانيه الواضحة البيّنة التي لم يكلّفنا الله بها، ولم يكتب الله في قرآنه طلاسم ورموزاً ولا في عقائده طولية وفعلية، بل هو إله واحد له الخلق والأمر كلّه قال تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً**﴾[الكهف: ٢٦]. وسنعرض لاحقاً في بحث الزيارة الجامعة كيفية معارضة بعض فقراتها للقرآن.

الردّ على الدليل الرابع

وأما الروايات التي دلّت على ملكيّتهم عليهم السلام للأرض فهي ضعيفة السند من جهة ومقيّدة بروايات ملكيّتهم للأنفال من الأرض باعتبارهم عليهم السلام رؤوس الدولة الإسلامية التي تمتد على الأرض كلّها، فكما تملك أيّ دولة مشاعاتها وآثارها ونفطها وما إلى ذلك، فكذلك يملكونها على نحو ملكية الدولة لا الملكية الشخصية، وإذا كانت الأرض ومَنْ عليها من الناس ملكهم، إذاً على من يبيعونها كما ورد في قضية مشابهة عن الإمام الرضا عليه السلام حيث سأله صاحبه عبد السلام أنّ الناس يقولون إنّ الناس عبيد لكم، فرفع الإمام عليه السلام يديه إلى السماء متبرّئاً إلى الله ممّا يُنسب اليهم ويعتبر ذلك ظلماً لهم عليهم السلام قال: «**يا عبد السلام إذا كان الناس كلّهم عبيدنا على ما حكوه عنّا فممّن نبيعهم؟**»[1]. هذا مضافاً إلى معارضتها للقوانين وللقواعد الفقهية من أن الناس مسلّطون على أموالهم وأنّ الأرض وما عليها ملكٌ لله وحده.

(١) عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٩٧.

الاستدلال برواية: نحن صنايع الله والخلق صنايع لنا.

فالرواية غير صحيحة، وثانياً فيها شرك صريح على ظاهرها من أنّهم صنعوا الناس.

وعلى فرضية الأخذ بها، لا بدّ من تأويلها كما أوَّلها السيد الخوئي (رحمه الله) وآخرون من أنّ الله صنعنا أي أدّبنا بالإسلام، ونحن علّمنا الناس الإسلام، فالصنع بمعنى صنعونا أخلاقياً وإسلامياً، وعلى هذا المعنى لا تدلّ على الولاية التكوينية، بل التشريعية الثابتة لهم من جهة كونهم خلفاء النبي وحَمَلة الرسالة. وهذا بعيد كلّ البعد عن المطلوب.

وكلّ الروايات التي استدلّوا بها على الولاية التكوينية هي على خلاف الظاهر، مخدوشة في سندها، أو لا بدّ من تأويلها، كما أنّ الروايات التي اعتبرت وجودهم حافظاً للأرض من أن تسيخ بأهلها، فهي لا بدّ من حملها على المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال: ٣٣] حتى لا تعارض القرآن إذا كان السند معتبراً وهي دائرة مدار الكرامة واستجابة الدعاء، والدلالة على مكانتهم لا على معاجزهم، لأنّ المعجزة خرق لقانون الطبيعة وناموسها، وهذه بيد الله تعالى يُقْدِرُ عليها أنبياءه عند الضرورة والحاجة إليها لإثبات نبوّتهم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. ولدفع المفسدة عن شريعتهم أمام التحدّي الكبير، وهذا ما أشارت إليه آيات عديدة تحصر وجود الآيات والمعاجز بيد الله سبحانه: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾[العنكبوت: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنعام:

١٠٩] نستوحي من هذه الآية أنّ المعاجز وخرق نواميس الطبيعة بيد الله وحده وساعة يشاء مع أنّ المشركين أقسموا أيماناً مغلظةً إذا جاء محمد ﷺ بمعجزة كعصا موسى مثلاً أن يؤمنوا بها، لكنّ الله لا يخرق قوانينه إلا ساعة يشاء، وقال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧] فالآيات، أي المعاجز بيد الله، وليست بيد الأنبياء، وهذه الآية تكشف بوضوح أنَّ الله لم يُقْدِرْ أعظم أنبيائه وهو محمّد ﷺ فضلاً عن من هم دونه على المعاجز في أحلك الظروف فأين هي تلك الولاية التكوينية التي تُعطى لهم أو لغيرهم؟

الردُّ على الاستدلال السادس

أمّا الاستدلال بوقوعها فعلاً كحادثة ردّ الشمس، ففيها نقاش طويل منها أنّه كيف يمكن للمعصوم أن يترك الصلاة حتى ترجع له الشمس ليصلّي وهو الذي لم يترك الصلاة في أكثر الظروف صعوبة في حرب صفين فقالوا له أهذا وقت صلاة؟ قال: «**إذاً على ما نقاتلهم؟**»

ثانياً: الرواية تقول: إنّه مرّ بجيشه في أرض ببابل فخُسِف بأهلها، فأخّر الصلاة لكراهة الصلاة بتلك الأرض، وسار حتى غابت الشمس، سبحان الله؟ ﴿**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[الصافات: ١٥٤] هل يُقدَّم المكروه على الواجب فيترك الصلاة فقط لتقولوا بأنّه يحرّك الشمس بإصبعه!!! ثم حادثة كهذه لا بدّ أن تُروى من كلِّ الناس، لأنّها ظاهرة كونية شاهدها الجميع، ولم تكن كذلك، بل كانت أخبار آحاد، والإشكالات كثيرة.

أكتفي بما قدّمت لوهن الاستدلال. فلأجل إثبات كرامةٍ ما نجعله «يرتكب الحرام» وحاشا له ذلك! ليس ذلك إلا افتراء: إنّ كرامة عليّ عليه السلام أعلى وأرفع من الشمس والدنيا بأسرها، فلا يحتاج مَن كانت

أنفاسه كرامات ولحظات حياته كرامات، إلى مثل هذه الترهات، وأما باب خيبر فهو من الكرامات لا المعجزات وهو القائل بعد إنجازه: «**قلعته بقوّة الله**».

ألم تشاهدوا بعض أصحاب القوة على التلفاز كيف يجرّون بأسنانهم سيارة الشحن الكبيرة؟ فهل هذه معجزة؟ وهل لهؤلاء الرجال الولاية؟

لا بدّ أن نفتح عقولنا على الحقائق ونفكّر جيداً في الأمور قبل أن نأخذ الموقف.

خاتمة

وردت روايات كثيرة تؤكّد على أنّ الميزان في معرفة الصحيح من الفاسد هو القرآن الكريم، ويجب عرض الحوادث والأحاديث عليه، ثم رمي ما يُعارض الكتاب، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام هم حَمَلة القرآن والعاملون به والمجسّدون لنهجه وأخلاقه، وهم تحت القرآن وقوانينه لا فوقه، والله تعالى يقول تهديداً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وحاشاه أن يخالف ولكن من باب المبالغة وعدم الإجازة لأحد في مخالفة الأحكام الإلهية: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[الحاقة: ٤٤-٤٦] فمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم تحت القانون، لذا لا بدّ أن نرجع إلى القرآن ونستلهم تعاليمه التوحيدية الصافية والعقائدية الواعية والأخلاقية الزاكية لنكون القرآنيّين في كلّ حركاتنا وفكرنا ووعينا، لأنّنا المسؤولون عن كلِّ هذه الأمور ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾[الإسراء: ٣٦] ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾[الصافات: ٢٤]. لكي لا نُدخل في الإسلام ما ليس فيه ﴿**آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[يونس: ٥٩] إضافة إلى أنّهم أمرونا بترك الأحاديث التي تخالف القرآن: «**إذا جاءكم الحديث عنا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق**

الكتاب فخذوا به وإلا فهو زخرف أو اضربوا به عرض الجدار»[1].

مشكلتنا في هذا الزمن كثرة الجهل وحملته مع تطوّر العلم ووسائله وتصدي بعض المتخلفين والجهلة لمنابر الإسلام، وللأسف فإنَّ مَن يعتقدون أنّهم رواد المعرفة وأهل الحق وخَدَمَة الإسلام يعتمدون في الكثير من أقوالهم وأفكارهم على أهل الغلو والشيخية، وسنشير إلى ذلك في بحث الغلو. والمشكلة الأخرى أنّ كثيراً ممن يملكون العلم خصوصاً إذا وصلوا إلى درجة الاجتهاد لا يتصدّون لتعليم الناس وتوجيههم ولا يبحثون في عقائدنا ومفاهيمنا بحثاً دقيقاً كبحوث الفقه والأصول ليُخرجوا الصحيح من الفاسد إلا النزر اليسير. إنّ تَرْكَ الساحة لهؤلاء يشكّل خطراً كبيراً على الأمّة وتمزيقها وتفريقها وتثقيفها ثقافة التخلّف والخرافة والغلوّ بدل الإسلام الصحيح. إنَّ هذا النهج السيّئ اتّبعه أيضاً أكثر أهل السنة خصوصاً المتصوفة تاريخياً، فاستغل الجهلة والحاقدون وأهل المصالح والساسة منهم الروايات ليثبتوا الفُرقة والتضليل والتكفير والفتن بين الناس وكذلك الخرافة وتقديس اللامقدّس. لذا، نقول: تدبّروا في آيات الله سبحانه قبل أن تتكلّموا.

القرآن ينفي الولاية التكوينية

ثم إنّنا نجد القرآن في مسألة الولاية التكوينية خلاف تلك الولاية، إذ إنّ الله تعالى ينسب كلّ فعل إلى نفسه، وفي الآيات التي يحكيها عن نبيّه ﷺ تدلّ على أنّه لا يملك الولاية أبداً: جاء في سورة الإسراء الآية ٩٠-٩٣: **﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن**

(١) مجمع البيان، الطبرسي، ج ١، ص ١٣.

﴿زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ وكلّ هذه الطلبات ضمن دائرة من له الولاية، لأنّه تصرّف بناموس الكون وقوانينه فأجابهم نافياً، أي ما تطلبونه مني هو لمن له ولاية الأمور وتدبير الكون، وهذه وظيفة ربي الذي أُنزّهه عن البشرية التي أنا فيها. إلى غيرها من الآيات الكثيرة النافية لولاية أي مخلوق على الكون وما فيه أو بعضه. أيها القارئ العزيز علينا الرجوع إلى القرآن، إلى الأصالة، لننهل من معالم ديننا ولنفهم إسلامنا ونبتعد عن كل هذه الفوضى الثقافية ولنقف عند حدود الله.

وهكذا نرى عدم دلالة هذه الآيات على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يملك شيئاً من ذلك كلّه وأنّ مهمّته الأولى والأخيرة هي الرسالة في حركتها التبليغية من التبشير والإنذار وهداية الناس إلى طريق الله، بل إنّ القرآن يؤكّد عناصر الضعف البشري في ذات الرسول، ولكن في المستوى الذي لا ينافي العصمة. فهذا موسى أوجس في نفسه خيفة ولو كان له ذلك الإقدار والولاية وكان يعلم الغيب لما خاف من حبالهم التي خُيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى، وعندما طلب الله منه الذهاب إلى فرعون قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[الشعراء: ١٤] فلو كان له ولاية تكوينية وهو القادر بها على قتل فرعون ومن معه بإشارة، فلِمَ يخاف في المقام؟ وهل هذه الآيات إلا دليلٌ قاطعٌ على نفي الولاية التكوينية. وإن قلت فلِمَ ذهب إليها مراجع وعلماء؟ الجواب: لأنّ منهاجهم العقلي واستغراقهم في الفلسفة والعقليات التجريدية أبعدهم عن روح القرآن وفهمه فهماً عميقاً. ولأنّ بعضهم يعتمد على أسلوب الرواية ولا يدقّق فيها كثيراً لمجرّد ورودها في مجال الكرامات لأهل البيت عليهم السلام ومستعدّ لأن يؤوّل القرآن لصالح الرواية.

ولا يفوتنا التأكيد أنّنا نحترم آراء العلماء في ذلك ونناقشهم لأنَّ لهم

عقولهم وفهمهم، ولنا عقولنا المسؤولون عنها، وما دام النص بين أيدينا فلنا الحقّ، بل يجب علينا أن نتدبّر فيه لأنّه لا عصمة للآراء في البين.

وأيّ ولاية مع هذه الآية التي تدل على نفي الفعلية في وجود الطاقة التي تدفع عن الإنسان الشرّ وتجلب له الخير قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[الأعراف: ١٨٨].

وكيف ينسجم القول بالولاية على الأمور ونواميس الكون ومعرفة خصائصه مع نفيها عنهم في القرآن، ونسبة الغيب وعلمه إلى الله وتأكيده تعالى أنّهم يعلمون ما علّمهم الله تعالى فقط قال سبحانه: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾[الجنّ: ٢٦ ـ ٢٨]. ممّا يدلّ على حصر علم الغيب المعطى لهم في دائرة الرسالة فيما يحتاجون لا مطلق الغيب وفي جوّ ملائكي يرصد حركة الوحي في الوصول إلى التبليغ به.

إلى غيرها من الآيات التي تبيّن ضعفهم البشريّ صلوات الله عليهم، فهذا موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة، وهذا إبراهيم عليه السلام ينسب شفاءه ومرضه وطعامه إلى الله تعالى، إلى غير ذلك ممّا لا يحصيه هذا المختصر.

وهذا خطاب الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف ينبغي أن يقدّم نفسه للناس ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[الأنعام: ٥٠] ومن خلال هذا الحديث نستطيع أن نخرج بالفكرة التي تنفي الولاية التكوينية بمعناها التكويني الذي منحه الله للأنبياء والأئمة لأنّ الدليل لم ينهض عليها حسب فهمنا

القاصر، ولكن يبقى أنّ الله يمنح الأنبياء الفرصة التي يواجهون فيها تحدّيات الكفر بالمعجزات عند الحاجة إليها والله العالم.

وهناك نقطة هامّة تنفي الولاية التكوينية جملةً وتفصيلاً تحصر ما أتى به الأنبياء في دائرة المعجزة وقد أشار إلى هذا المعنى السيد الأستاذ فضل الله ﷺ وهو من أروع الاستدلالات في كتابه (نظرة إسلامية حول الولاية التكوينية) حيث جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾[العنكبوت: ٥٠] فتدلّ دلالة واضحة على عدم امتلاك النبي ﷺ طاقة وقدرة تمكّنه من التصرّف بالكائنات لأنّه حتى في موقع التحدّي الذي ليس فيه خطر على الرسول والرسالة يطلبون منه آية، أي معجزة فينفي قدرته على ذلك وينسب المعجزة إلى الله، أليس هذا دليلاً واضحاً على نفي الولاية التكوينية لهم وكذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧]. فهل يوجد أوضح وأكثر صرامة من هذا الدليل على أنّ الآيات أي المعاجز الخارقة للأسباب الطبيعية الكونية هي بيد الله وهو سبحانه قادر على أن ينزلها، ولكن ساعة يشاء هو، لا ساعة يشاء الناس، وأنّ النبي وظيفته محصورة بالتبليغ للرسالة حتى أنّنا نشعر تبعاً لسيّدنا الأستاذ ﷺ أن لا معجزة للنبي محمد ﷺ غير القرآن، وما ثبت لا يعدو كونه كرامة أو إجابة دعاء ممّا توحيه هذه الآيات النافية لأي قدرة أو معجزة له غير القرآن الكريم وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**﴾[الإسراء: ٥٩]. وظاهرها نفي الإرسال بالآيات بالرغم من كونها مطلباً ملحّاً للمشركين وقوله تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنعام: ١٠٩]. فالمسألة واضحة وضوح الشمس لأدنى تأمل في البين، ممّا يجعلنا نستغرب كيف

ذهب بعض العلماء الكبار إلى أنّ لهم الولاية على الكون والقدرة على التصرّف فيه إيجاداً وإعداماً والله ينفي أنّ لهم القدرة على الآيات حتى في مواقع التحدّي العادي للرسالة والمطلب الملحّ، ومع ذلك يأمر الله تعالى نبيّه أن يقول إنّ الآيات بيد الله والمعاجز بيد الله عزّ وجلّ، وأما دوري فهو محصور بالرسالة وتبليغها ومعجزتي هي ما أقدرني الله عليه مباشرة منه لإثبات دعوتي والله العالم.

ولا يكتفي القرآن بإثبات بشرية الأنبياء: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [الكهف: ١١٠]، بل يتحدّث عن عناصر الضعف في شخصيتهم، فهذا موسى يخاف من فرعون، فلو كان يملك الولاية لماذا يخاف؟ ولو حرّك يده لأزال فرعون وأتباعه، قال تعالى: ﴿**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**﴾[الشعراء: ١٤] هذا والله يقول: ﴿**لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[طه: ٤٦]، وأيضاً خوفه في ساحة التحدّي مع السَّحَرة، فلو كانت له القدرة التكوينية لماذا يخاف وهو يعلم أنّ الحيّات ليست إلا حبالاً يُخيّل إليه أنّها تسعى وأنّه قادر على سحقها لأنّ معه الولاية، لكنّ خوفه يؤكّد عدم معرفته بالغيب وعدم ولايته على الأمور، ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى**﴾[طه: ٦٧-٦٨].

وهكذا في قصة إبراهيم عندما دخلت عليه الملائكة لتبشّره بإنزال العذاب على آل لوط خاف منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل الذي قدّمه لهم حيث قال تعالى: ﴿**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ**﴾[الذاريات: ٢٨].

ونظائر هذه الآيات عديدة في القرآن التي تنفي عنهم علم الغيب إلا ما علّمهم الله، وتنفي القدرات عن شخصيّتهم إلا ما أقدرهم الله في دائرة الرسالة، والله أعلم.

تتمّة أساسية

اعلم أنّه من المسلّمات عندنا أنّ تثبيت المسائل العَقَديّة وفروعها لا بدّ أن يكون بنصٍّ قطعيّ من قرآن أو سُنّة، ولا بدّ أن يكون النص في غاية الوضوح، فلا يمكن إثبات فرع اعتقادي كمسألة الولاية التكوينية بأدلة ظاهرة في معاني أخرى كالآيات التي استدلّ بها أو بروايات أو زيارات لم تثبت أمام النقد، خصوصاً مع صراحة ظهور الآيات التي قدّمناها في آخر هذا البحث عن حصر المعاجز بيد الله عزّ وجلّ وعدم إنزالها حتى مع الحاجات الملحّة، بل ترك نبيّه يواجه بالوسائل الطبيعية مؤامرات المشركين والله أعلم بحقائق آياته.

علم الغيب

هنا مسألة هامّة تعرّض لها العلماء بين نافٍ لعلم الغيب عن الأئمة وبين مُثبت لهم ذلك، على قاعدة ولايتهم التكوينية، لأنّ علم الغيب فرعٌ من الولاية على الكون، ونحن تَبَعاً لأستاذنا السيد فضل الله ﷺ ننفي ذلك مع كثير من كبار العلماء. وقد استدلّ المثبتون لعلم الغيب للنبي والأئمة عليهم السلام، بالقرآنِ والسُّنّة كما النافون أيضاً يبطلون ذلك بالقرآن والسُّنّة، وإليك الأدلّة ومناقشتها:

قالوا إنّ العالِم بأسرار الكون ومعرفة وقائعه، أي علم الغيب فلا إشكال أنّ له الولاية عليه، ولا أقل يُمْكِنُه مَنْ تفادي سلبيّاته وتأثيراته التكوينية.

ويُرَدُّ على ذلك، إنّ العلم بالشيء على فرض ثبوته لا يقتضي بالضرورة الولاية عليه أو القدرة على اجتنابه، فهذا الطبيب يعلم بالأمراض وأسبابها وتطوّرها ولا يملك اجتنابها، أو معالجة قسم منها، بل يقف الطب مع تطوّره عاجزاً أمام بعض الأمراض، وربما يُطلع اللهُ أنبياءه على علوم

تتّصل بأمور الدين دون أن يكون لهم القدرة على تغيير شيء منها، بل هي من مختصات الله سبحانه وتعالى.

وما يؤيّد هذا المعنى العقلي الدليلُ القرآني حيث يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾[الأعراف: ١٨٨] يقول السيد الأستاذ ﷺ ممّا يوحي بأنّ النبيّ لا يملك علم الغيب الذي يقيه من مكاره الدهر من الأمراض أو البلاء أو الذي يطلعه على مواقع الخير.

الأمر الثاني، هناك آياتٌ عديدة تدلُّ على عدم معرفتهم أو امتلاكهم لعلم الغيب منها قوله تعالى إضافة على الآية السابقة: ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾[الأنعام: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[الأحقاف: ٩]، فلو كان يعلم الغيب كيف ينفي عن نفسه عدم معرفة ما يحصل له أو ما يُفعل به، أليس هذا تعارضاً واضحاً وهناك آيات تحصر معرفة علم الغيب بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾[الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى وهو يحدّث نبيّه عن الأنبياء الماضين وأخبارهم ونفى علم النبي ومعرفته بهم إلاّ ما علّمه الله تعالى حيث قال: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ**﴾[آل عمران: ٤٤]، أو عندما حدّث الله تعالى نبيّه عن غلبة الروم وفتح مكة وغيرها من المغيّبات التي لم يكن يملك معرفتها، لولا أنْ علّمه الله تعالى، ممّا لا يملك النبي ﷺ معرفته، لأنّه لا يملك علم الغيب ولأنّ الغيب محصورٌ به سبحانه.

لكن المثبتين قالوا إنّ هذه الآيات تدلّ على عدم معرفتهم بعلم الغيب

استقلالاً عن الله تعالى خروجاً عن التعارض الذي يظهر من قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً**﴾[الجن: ٢٦] فلا يُظهر على غيبه أحداً إلاّ مَن ارتضى من رسول.

فإنّه ـ حسب رأيهم ـ يعلم الغيب بما علّمه الله وما نفاه الرسول من معرفة علم الغيب في الآيات السابقة محمولٌ على عدم الاستقلالية في المقام. ويُرَدُّ على هذا بأنّه خلاف ظاهر القرآن، لأنّ الآيات السابقة تدلّ قطعاً وظهوراً صريحاً على عدم امتلاكه لعلم الغيب لا استقلالاً ولا ولاية عليه، بل هذه الآية تؤكّد ما نقوله عند ملاحظة بقية الآية، ولله درُّ الأستاذ المرجع السيد فضل الله ﷺ فيما قدّمه من فهم عميق لها حيث يقول إنّ الآية تقول: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾[الجن: ٢٦-٢٨]. يقول إنّ المثبتين لعلم الغيب قالوا بأنّ الله قد أعطى رسوله وأولياءه العلم بالغيب، إما بطريق القوة أو الفعلية الاستحضارية، أي لو شاء عَلِم، وإنّ الاستثناء في قوله تعالى، ﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[الجن: ٢٧] الذي هو الإطلاق الذي لم يتقيّد بشيء، فهو له علم الغيب ساعة يشاء حاضراً بالقوة أو بالفعل والاستثناء لا يقيّده: ويُرَدّ عليهم أنّ هذا خلاف ظاهر الآية وتعليلاتها لأنّ الآية ناظرة إلى الوحي الذي يُوحي به الله تعالى إلى نبيّه، والوحي هو من الغيب كما هو واضح. والشاهد عليه انحصار الغيب بالوحي في خطّ الرسالة، قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[الجن: ٢٧]، حيث يشير إلى نوعية الغيب الذي ارتضاه للرّسل، أي في دائرة الرسالة التي تأتيه عن طريق الوحي لا مطلق الغيب، فإنّ الرصد يعني أنّ هناك جواً ملائكياً يحيط بهذا الوحي ويحميه من وساوس وتخاليط الشياطين، ليضمن وصول ذلك الوحي

إلى الناس سالماً من خلال حماية النبيﷺ، حتى يبلّغ ما أوحى به إليه، فليست الآية في مقام إظهار علم الرسول بالغيب، بل في مقام الحديث عن حماية الوحي بطريق الغيب ليضمن وصوله إلى الناس، فكأنّه كلام جديد في الحديث عن مهمة الرسل في إبلاغهم رسالات ربّهم واطلاعه عليهم وحمايته لهم، وذلك هو أسلوب الاستثناء المنقطع أي إنّ الآيات النافية لعلمهم بالغيب هي الأصل.

﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[الأنعام: ٥٠] وهذا الاستثناء هنا كلام جديد يؤكّد عدم معرفتهم بالغيب إلا ما يتّصل بالوحي في حدود الرسالة وحمايتها من قِبَل الله لضمان وصولها إلى الناس عبر الرصد الملائكي، وهذا ما يؤكّد نفي علم الأنبياء بالغيب المطلق.

والحاصل أنْ ليس في الأدلّة ما يُثبت دعواهم من أنّ النبيﷺ وأهل البيت يعلمون الغيب، بل الدليل القرآني والروائي كمّا أشرنا إليه على خلافه، وهناك مشكلة عند بعض الناس أنّهم استغرقوا في هذه الأمور حتى لامسوا الغلو من حيث لا يشعرون، وإن حاولوا تأويل الكثير من هذه القضايا ليبعدهم عن الغلو، لكن محاولاتهم مخالفة لروح العقيدة والكتاب، وبعيدة كلّ البعد عن صفاء التوحيد الذي هو منهج الإسلام والأديان وخطّ أهل البيتعليهم السلام، ولنعمّم ما قاله شيخنا الطوسي: «أوّل درجات الغلو نفي السهو عن المعصوم» وأيّده جمع من العلماء ولذلك علينا أن نرجع إلى القرآن، لأنّه المصدر الأساس للتشريع والعقيدة، وبه نحفظها من التحريف والتأويل، وأما الروايات فمتعارضة في ذلك، ولكن الأقوى اعتبار الروايات الموافقة للقرآن طبقاً للمنهج الذي أمرنا أهل البيتعليهم السلام باتباعه، وهو الأخذ بالحديث الموافق للقرآن وجعل الكتاب هو الميزان في أخذ الحديث أو رفضه أو لا أقل التوقف.

ومن هنا يتّضح فساد القول بالولاية التكوينية المستندة في أحد أدلّتها على أنّ لديهم علم الغيب، وقد بحثنا هناك هذه المسألة وزدنا عليه هذا البحث، إضافة إلى أنّ علم الإنسان بالشيء لا يعني ولايته عليه.

وهناك آية صريحة تنفي علم الغيب عن مطلق الكائنات في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾[النمل: ٦٥].

وحَرْف اللام كما نعلم يفيد النفي بل على بعض الآراء النفي التأبيدي والاستثناء لما يعلمونه من علم الغيب، هو ما أوحى الله به إليهم في حدود تبليغ الرسالة كما أشرنا إليه سابقاً.

والسؤال:

هل أنّ الأنبياء أو النبي والأئمة يعلمون الغيب أو لا؟ هذا مثار جدل كبير خصوصاً في زمننا وأساسه من الغلوّ، ومن متفرّعاته لذلك ندخل في الموضوع مباشرة الغيب، الذي هو الشيء المستور أو الأمر الذي لا نملك علمه، وعلى كلّ حال الغيب من مختصات الله تعالى وداخلٌ في علمه عزّ وجلّ ولا إشكال أنّ صفة العلم عند الله تعالى هي عين ذاته، ومعلوم أنّ صفات الذات الكمالية والجلالية لا تنفكّ عن ذاته وقديمة بقدمه عزّ وجلّ فكيف للمحدود المخلوق أن يحيط باللامحدود، هذه نقطة، وهناك أمر آخر، لا نغفل عنه وهو أنّ علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام هو جزء من علم الغيب الذي أوحاه الله تعالى لأنبيائه ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[آل عمران: ٤٤] وهذا يقودنا إلى الحديث عن بعض النقاط.

النقطة الأولى: هل علم الغيب الموحى به إلى الأنبياء مطلق أو محدود؟ لا إشكال أنّ للنبيّ ﷺ ملكات معرفيّة يمنحه الله تعالى إيّاها من خلال فيوضاته الربانية بما ينسجم مع شخصيّته النبويّة بشكلٍ نسبيّ لأنّ محدوديّة المخلوق ولو كان في الدرجة العليا هو بشر كما سنشير إليه.

ولذلك، فإنّ الله تعالى يخبرنا في كتابه أنّه يوحي بالغيب لنبيّه في حدود ما يحتاج إليه في رسالته لا مطلقاً. قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً**﴾[الجن: ٢٦]، فإذاً في كثير من الآيات يحصر الله تعالى علم الغيب به حيث يقول في آية أخرى، ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[الأنعام: ٥٩] وكذلك في آيات أُخَر ولكن علم الغيب هذا يُظهره الله تعالى لمن ارتضى من رسول، كما تقول الآية الأولى والسؤال مطلق أم أنّ هناك حدوداً لنكمل الآية ٢٦ من سورة الجن بما بعدها من الآيات ٢٧-٢٨: ﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾[الجن: ٢٧-٢٨].

فالاستثناء هنا مقيّد بحدود الرسالة لأنّه تعالى يرصد حركة الوحي الغيبي بجوّ ملائكي ليصل الوحي ويبلغ إلى الناس، فالآية مخصوصة بالوحي الغيبي الذي يصل إلى الرسول ولا تتحدّث عن علم الغيب عند النبيّ حتى يقول القائل إنّ علم الغيب عنده بطريق القوّة لا الفعليّة، بمعنى أنّه لو شاء علم، وإلا لو كان الأمر كذلك فما الفرق بين علمه وعلم الله عزّ وجلّ الذي هو عين ذاته سبحانه؟

ويؤكّد هذا المعنى آيات أخرى كثيرة أخبر الله فيها نبيّه عن أنّ علمه من عند الله وبما يوحيه الله إليه قال تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران: ٤٤].

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[القصص: ٨٥].

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[الفتح: ٢٧].

إلى غير هذه الآيات التي تؤكّد أنّ معرفة الغيب من النبي محصورة عن طريق الوحي، وممّا أراد الله أن يعلّمه إياه له ولأهل بيته عليهم السلام وليس مطلقاً.

النقطة الثانية: قد يُقال ما الدليل على نفي الإطلاق من أنّه يمكن أن يعلم حيث أراد، ولكنّه لا يريد في كثير من الأحيان؟

قلنا: **أولاً**:

أ ـ ما قلناه من إنّ علم الله تعالى وغيبه من صفاته وهي عين ذاته وصفات المخلوقين عارضه على الذات لا عينها.

ب ـ الصفات الإلهية مطلقة، وصفات المخلوقين محدودة.

ت ـ صفات الله تعالى أزليّة، وصفة المخلوق حادثة له عارض عليه.

ث ـ فإذا قلنا إنّهم يعلمون مطلق الغيب أصبحوا شركاء لله تعالى في علمه المطلق، وهو منفي لمغايرة صفة المخلوق عن صفة الخالق.

ثانياً: الدليل القرآني الواضح الصريح ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾[النساء: ١٢٢] وله نحوان:

١ـ قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ

كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وهل هناك أبلغ من هذه الآية في نفي علم الغيب عن النبيﷺ الذي هو أعظم خلق الله عزّ وجلّ، فكيف بمن هم دونه ممّا توحي به الآية من أنّ النبيﷺ لا يعلم الغيب ولا يملكه لأنّه لو كان كذلك لجلب لنفسه الخير ووقى نفسه مكاره كثيرة من مرض وبلاء ومؤامرات يحيكها له أعداؤه، وإذا كانﷺ ومن هم دونه لا يملكون الضرّ والنفع إلاّ بالله فكيف يدفعون الضرّ أو يجلبون النفع لغيرهم، وأن يقضوا حوائج الناس، وأن يطلب إليهم دفع الضرّ وجلب النفع قال تعالى: **﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾**[الأنعام: ٥٠] **﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾**[الأحقاف: ٩]، فلسان هذه الآيات الأمر للنبي بلفظ «قل» أي أن يقرّ بعدم معرفته بالغيب وبالأمور التي ذُكرت، لأنّ ذلك بيد الله عزّ وجلّ، وحصر دوره في علم الغيب بما يوحي إليه من الرسالة لا مطلقاً.

٢ـ هناك روايات تنفي علم الغيب عنهم، وروايات تؤكد ذلك فنأخذ بما وافق القرآن لا بما يخالفه ومحاولة توجيه تلك الروايات قبل ردّها إن أمكن.

٣ـ ورد عن أبي بصير قال: قلت للصادقعليه السلام إنّهم يقولون... قال: **ما يقولون؟** قال: يقولون إنّك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر وعدد التراب. فرفع الإمامعليه السلام يده إلى السماء وقال: **سبحان الله سبحان الله لا والله ما يعلم هذا إلا الله**[1].

(١) معجم رجال الحديث، ج١٤ ص٢٥٣.

وجاء في نهج البلاغة أنّ علياً كان يخبر بحوادث المستقبل، فقال له أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين أتتحدّث بالغيب وتؤمن به؟ فتبسّم الإمام عليه السلام وقال: «**يا أخا كلب** (لأنّ الرجل من بني كلب)، **ليس هو بعلم الغيب وإنّما هو تعلّم من ذي علم وإنّما علم الغيب وعلم الساعة وما عدّده الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[لقمان: ٣٤]، **فيعلم الله ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقيّ أو سعيد ومن يكون في النار حطباً وفي الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله** (وهنا موضع الشاهد على حصر علم الغيب بالله تعالى) **وما سوى ذلك فعلم علّمه الله لنبيّه ودعا لي أن يعيه صدري...**»[1].

ومن الطبيعي انه عليه السلام يتحدّث عن علم الغيب المتصل بالدين والرسالة لا مطلقاً.

وفي رواية الإمام الكاظم عليه السلام لما سأله رجل من أهل فارس أتعلمون الغيب؟ قال عليه السلام: «**يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنا العلم فلا نعلم**». وقال: «**سرُّ الله عز وجل أسرَّه إلى جبرائيل عليه السلام وأسرَّه جبرائيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وأسرَّه محمد إلى ما شاء الله**»[2]. فهذه الرواية واضحة الدلالة بنفي مطلق علم الغيب عنهم وأنّ ما يعلمونه هو علم من ذي علم علّمهم إياه رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول سيدنا الأستاذ رضي الله عنه في ضوء ذلك: «فإنّ ما ورد من روايات متنوّعة حول علم الأنبياء والأئمة عليهم السلام بالغيب وبصرف النظر عن أسانيدها وعن كونها متعارضة فيما بينها لا بدّ من أن تعرض على القرآن ليردّ ما خالفه

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.
(٢) الكافي: ج١ ص ٢٥٦.

منها إليه.. وذلك حتى ينسجم مع القرآن المعجز. وحتى يبتعد الجميع عن تأويل القرآن الذي يبعده عن بلاغته وحمل ألفاظه على غير ظاهره كما فعلوا من روايات علمهم بالغيب وإنّهم إذا أرادوا علموا وما إلى ذلك لأنّ ذلك يبعدنا عن النهج القويم والصراط المستقيم ويقرّبنا من الغلو».

ولا يخفى أنّ المغالين والخرافيين وضعوا آلاف الروايات في تفسير القرآن بالأئمة عليهم السلام وفي نسبة صفات الله إليهم وفي وضع القصص الكثيرة التي لا تتناسب مع مقامهم لا نستطيع إيرادها في هذا المختصر وأسأل الله أن يوفقني للإشارة إلى الكثير منها في كتاب مستقل تحت عنوان: سؤال وجواب في العقائد والشبهات والتاريخ.

قاعدة التسامح في أدلّة السُّنن

هذه القاعدة التي ذهب إليها المشهور من علماء السُّنّة والشيعة ومفادها التساهل في أدلّة المستحبّات، حيث لم يُخضعوا الأدلّة والنصوص الواردة في المستحبّات إلى البحث العلمي الدقيق الذي يُخضعون له الأحكام الأخرى من الواجبات والمحرّمات، إذ إنّهم في مثل هذه الأحكام يبحثون في سند الرواية أي الرواة والأشخاص الذين رووا هذا النص، هل هم من الثقاة الذين يُعتمد على قولهم أو هل فيهم فاسق أو مجهول الحال أو مجهول نقل عنه فتضعف الرواية ولا يُؤخذ بها على حسب ما قُرّر في علم الرجال؟ ثم إنّهم يلاحظون مجموع الروايات الواردة في الباب، هل هي متعارضة أو مفادها واحد؟ وإذا كانت متعارضة هل يمكن الجمع بينها أو لا كما يجمع بين الوجوب والاستحباب؟ أي إنّ رواية في غُسل الجمعة مفادها كفايته عن الوضوء، ورواية مفادها عدم كفايته للوضوء، فمقتضى الجمع الاستحباب بضم الوضوء مثلاً.

ثم يبحثون هل هي معارضة للقرآن أو لا؟ وأمور أخرى ليس المقام لذكرها، بل كإشارة إلى كيفية معالجة الروايات عند الفتوى بها.

وأما عندما يأتون إلى المستحب، فإن ثَبُتَ الحديث به فلا إشكال في البين، وإن لم يثبت يفتون باستحبابه على أساس قاعدة التسامح في أدلة السُّنن وهذه القاعدة هي سبب الكثير من تشويه الدين وخطّ أهل البيت

عليهم السلام عبر زيارات مخترعة وأدعية مبتدعة وأحاديث تعطي ثواباً خيالياً عمن يقوم بعمل بسيط، وهذه القاعدة مبنية على بعض الأحاديث التي لم يثبت أكثرها وما ثبت لا بد من تأويله وإليك نموذجاً من الأحاديث:

ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «مَنْ بلغه ثواب على عمل فعمله رجاء ذلك الثواب أُعطيه وإن كان رسول الله لم يقله»[1].

ومن العجيب أن يُستند إلى مثل هذه الروايات لأنّها مخالفة للكتاب صراحة والله تعالى لم يأذن لأحد بالكذب عليه ولا له ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[يونس: ٥٩] وثانياً معلوم حرمة الكذب بالقرآن الكريم وأنَّ الله لعن الكاذبين، ثالثاً قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[2].

فكيف يصبح الكذب بعمل ما أورده واضعُه وسبكته مخيّلته في إدخال هذه الأمور إلى الدين، كما كثُر ذلك في زمن الشيخية والقاجارية وقبلهم الصفوية والبويهية والمغالين وكثير من الفرق والصوفية الذين وضعوا الأعداد في الأعمال والأذكار أمراً مستحبّاً؟ وهل أنّ الله تعالى ينزل عند رغبة الكذاب؟ أقول: حتى الحديث نفسه فيه تهافت بيِّن، فلو فرضنا أنّ شخصاً ابتدع عملاً من صلاة أو صوم أو زيارة أو ما إلى ذلك من الأمور العبادية ثم أعجبه بأن يجعل من مخيّلته ثواباً على ذلك العمل، فجعل عليه القصور في الجنّة والغرف المزخرفة والأسرّة المرصّعة والأثاث المنقوش بالجواهر والحور العين والجنائن وما إلى ذلك، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله يعطيه الله تعالى ذلك الثواب وينزل الله عند ما وضعه الكذاب فهل يمكن تصديق ذلك؟

(١) وسائل الشيعة، ج١ ص٨١.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب من كذب على النبي، ح ١٠٧.

ثم هل أباح رسول الله ﷺ مثل هذا النوع من الكذب، إذ قد يدّعى كما ادّعى المدافعون عن واضع أحاديث فضائل سور القرآن عندما قالوا له بأنك تكذب على رسول الله، فقال: أكذب له، لا عليه، أي إنّه يكذب لصالح الشريعة والحثّ على قراءة القرآن لا أنّه يكذب على رسول الله[1] فهذا النوع من الكذب لم يستثنِه رسول الله ﷺ. وقد ذهب بعض العلماء كالسيد الخوئي رضي الله عنه إلى بطلان هذه القاعدة، لكنّه عاد وقال يُؤتى بالعمل برجاء المطلوبية، وقد رأى سيدنا الأستاذ السيّد فضل الله رحمه الله بطلان هذه القاعدة لأنّها من موارد الكذب على الله ورسوله والذي لم يأذن به الله تعالى حتى لرسوله ﷺ حيث قال: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[الحاقة: ٤٦].

وعلى كلّ حال عندما نأتي بالعمل برجاء المطلوبية لا على أساس أنّ الأجر الموضوع له في الرواية هو الذي يعطيه الله تعالى نزولاً عند رغبة وكذب الراوي، بل ما يعطيه الله تعالى من الأجر على العمل العبادي ربما يكون أكثر أو أقلّ فهذا يرجع إليه تعالى.

أي عندما تأتي بصلاة ليلة الرغائب أو صلاة يوم الغدير أو أيّ صلاة أخرى أو أيّ دعاء لم يثبت (مع ملاحظة فقراته المخالفة للعقيدة فيبتعد عنها) فالله يعطيك أجر الذكر بما يشاء سبحانه لا بما يذكره راوي هذا الدعاء أو الزيارة أو أيّ عمل آخر، وهذه ملاحظة هامّة في البين فربما يقال إنّ العمل برجاء المطلوبية ولو لم يثبت على طبق قاعدة التسامح يعطيه الأجر نفسه المنصوص عليه في تلك الرواية، ولكن هذا يعني أنّنا لم نفعل شيئاً، فقد أبطلنا القاعدة وثبّتناها من جهة رجاء المطلوبية، بل يقال كما أشرنا إليه أنّ العمل يُؤتى به برجاء المطلوبية، والله تعالى هو الذي يثيب

(١) البخاري، كتاب العلم، باب من كذب على النبي، ح ١٠٦.

بما يشاء وليس بما كتب الراوي، هذا مع عدم قطعنا بكذبه، وقد رفض هذه القاعدة كثيرون منهم السيد هاشم معروف الحسني في كتابه الموضوعات في الآثار والأخبار[1] والذي أنصح بقراءته لمعرفة الصحيح من الفاسد. وكذلك رفض هذه القاعدة الكثير من مراجعنا لا سيما السيد الأستاذ رضي الله عنه. ولو فرضنا أنّه صحّ شيء من هذه الروايات، فلا بدّ من طرحها أو تأويلها، لأنّها معارضة للقرآن ولضرورة حرمة الكذب، ولعدم الإذن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكذب له لا عليه، فضلاً في الكذب عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الموضوعات في الأخبار والآثار، ص ٢٢١.

الغُلـوّ

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[آل عمران: ١٦١]، الغلّ لغة معناها الخيانة، والغلل: دخول الماء في خلل الشجر، والغلول: الخيانة تجري على خفاء من غير الوجه الذي يَحِلّ.

فالنبوّة لا تجتمع مع الخيانة، والآية في مقام التأكيد لا في مقام عدم الثقة بالنبوّة، بل نجد في سيرة الأنبياء عليهم السلام ضمن الخطوط التي رسمها الله تعالى، فلا مجال للخيانة في الدين والتبليغ أو في الواقع.

أساس الغلو

ربما يكون الغلو بنظرة أولية قديمةً قِدَم الإنسان؛ فبعد انتهاء مرحلة النبوّة، يبدأ العابثون وأصحاب المصالح الآنية، سواء كانت مالية أو سياسية أو غير ذلك، باستغلال بعض الكلمات لهذا النبي أو ذاك، أو تحريف آيات الكتب السماوية، فيُدخِلون في الدين ما ليس فيه، وهذا ما يُسمّى بمفهوم البدعة التي هي ضلال، وكلّ ضلال في النار، وتطوّرت معهم المسائل حتى وصفوا الأنبياء وأوصياءهم والأولياء آلهة، وذلك كما وصفوا عيسى عليه السلام بالإله وأمّه كذلك، ومردُّ ذلك إلى أمرين أساسيين:

الأول: عبادة المحسوس ونقص الإيمان في «الغيب واللامحسوس»،

ولذا حوّل الناس كثيراً من مفردات دينهم إلى طقوس اصطنعوها وابتدعوها، فهذا ما أخبرنا الله تعالى عنه في كتابه عن قوم حوّلوا عباداً صالحين بعد مماتهم إلى تماثيل ليخلّدوا ذكراهم وتحوّلوا إلى عبادة تلك التماثيل، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً**﴾[نوح : ٢٣-٢٤] وهكذا امتدّت فكرة التعلّق بالمحسوس إلى النصرانية، فقدّسوا الخِرَق والقربان وغيرها من الأدوات المستخدمة في الكنيسة، واعتبروا أنّ السيدة مريم عليها السلام فضلاً عن النبي عيسى عليه السلام، تُطلب منها الحاجة وقضاؤها.. وقد دخلت هذه المفاهيم إلى المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فغال بعض الناس في عليّ عليه السلام واعتبروه الإله لما يحمل من أوصاف كمالية إنسانية في الشجاعة والإيمان والخضوع والزهد وما إلى ذلك، وامتدّت هذه المسيرة مع الأئمة عليهم السلام، تعظّم من وقت لآخر وتضعف، إلى أن اعتبر بعض أصحابهم بأن الأئمة عليهم السلام هم الصلاة والصيام، ولديهم قدرات فيخلقون ويرزقون ويديرون الكون.... مع أنّ الأئمة حاربوا هذه الظواهر.

وتتالت هذه الظواهر بإنشاء الفرق المغالية ونستعرضها باختصار بدءاً بالسبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي اعتبر بأن صوت الرعد هو صوت علي عليه السلام وأنه لم يمت، ثم الكيسانية أتباع كيسان مولى محمد ابن الحنفية إلى المغيرية أتباع المغيرة بن سعيد الذي دس ثمانية عشر ألف حديث في الغلو والزندقة ونسبها إلى الأئمة ومثله الخطابية الذي دس أربعة آلاف حديث، وقال بألوهية الإمام الصادق عليه السلام وإنّه بابه إلى الإسماعيلية والأفطاحية وهكذا امتدّت أصابع الغلو ودس الأحاديث إلى زمن البويهية.

ولقد تعاظم الغلو في زمن الصفوية والشيخية الذين غالوا في الدين وذلك قبل أكثر من أربعماية سنة، وصبوا كلّ عقائد المسيحية على الإمامية، فقالوا إنّ الله تعالى تجلى وتجسّد في الأئمة، واعتبروا الإمام إله الأرض

والله تعالى إله السماء تفسيراً بالهوى لقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾[الزخرف: ٨٤]، ووضعوا لذلك أدعية كدعاء الأذواد في رجب.

ومن عباراته: «لا فرق بينك وبينهم إلا أنّهم عبادك» (أي الأئمة)، وهو شرك صريح واضح، وهكذا وضعوا حديث الكساء المشهور في زماننا، لا أصل الحديث المتّفق عليه عند الفريقين، وغير ذلك مما لا يسع المقام ذكره، ثم قالوا بأنّ الخلق ترشّح منهم لأنه لا أهلية للخلق أن يصدر من المجرد مباشرة. ثم جاءت بعدهم فرق أخرى كالبابية والقاجارية وغيرها التي حاولت أن تهذّب هذا الشرك الواضح بعبارات لم تخدمهم كثيراً.

وما نراه في زماننا هو من تلك الفرق، سواء على مستوى الاعتقاد أنّ الأئمة عليهم السلام يخلقون ويرزقون ويُميتون ويُحيون.. أو على مستوى العمل حيث قدّسنا الكثير من الأمور كالتربة والخراريق المزورة والخواتم... وهكذا الحال عند كثير من فرق السُّنة والصوفية حيث يقطعون مسافات كبيرة للدعاء عند هذا الولي غير معروف النسب، أو غيره، ويطلبون الشفاء والنظرة الرحيمة من بعض علمائهم كالحلاّج والجيلاني وغيرهم.

الأمر الثاني: هو الثروة المالية التي يجنيها هؤلاء من جراء ذلك، والقداسة والزعامة الدينية التي يصنعونها لأنفسهم من خلال إضلال المستضعفين من الناس البسطاء الموالين والمحبين، والتي جاراهم عليها كثير من المعمّمين لقلّة معرفتهم بالقرآن.

موقف الأئمة عليهم السلام من الغلو

أعرض في هذا المختصر نموذجاً من الروايات وبعض الآيات القرآنية تتضمّن محاربة الغلو:

ـ ما رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام، بسنده إلى ياسر الخادم، قال: قلت للرضا عليه السلام ما تقول بالتفويض؟ فقال عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أمر دينه فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**» ونحن نعلم أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى مع تفويض الله له أمر الدين، الذي يعبّر عنه بالولاية التشريعية، مع ذلك لم يأتِ بشيء من عنده، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم: ٣-٤] ثم قال عليه السلام: «**أما الخلق والرزق فلا**» ثم قال: «**إنّ الله خالق كلّ شيء وهو يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[الروم: ٤٠].

وهكذا روى صاحب الاعتقادات ـ الشيخ الصدوق ـ أنّ زرارة قال لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ فلاناً يقول بالتفويض، قال: **وما التفويض؟** قال زرارة: إنّ الله عزّ وجلّ خلق محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وعلياً عليه السلام ثم فوّض الأمر إليهما فخلقا ورزقا وأحييا وأماتا، فقال: **كذب عدوّ الله، إذا رجعت إليه فاقرأ عليه الآية من سورة الرعد: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**[الرعد: ١٦] فانصرف الرجل فأخبره بما قال الصادق عليه السلام فكأنّما ألقمته حجراً.

وربما يقول قائل إنّه لا أحد من علماء الشيعة يقول بالتفويض، هذا صحيح ولكن بعضهم حسّنوا ذلك بقولهم إنّهم يفعلون ذلك بإذن الله كما كان عيسى عليه السلام وهذا ما استدلّوا به على الولاية التكوينية، وخفي عنهم أنّ عيسى عليه السلام كان دوره دور الآلة والصانع لهيئة الطير، والذي جعله طيراً حياً هو الله عزّ وجلّ. ولذا قال: ﴿**فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ**﴾[آل عمران: ٤٩] وأمر آخر: أنّ عيسى عليه السلام هذه معجزته الدالة على نبوّته لا قدرة ذاتية أعطاه الله إياها.. والمجال لا يسع للأدلّة ومناقشتها.

وروى عبدالله بن مسكان قال: دخل حجر بن زائدة وعامر بن جذعان على أبي عبدالله عليه السلام فقالا له: «جُعلنا فداك إنّ المفضل بن عمر وهو من رؤوس المغالين، يقولون إنّكم تقدّرون أرزاق العباد. فقال عليه السلام: **ما يقدّر أرزاق العباد إلا الله، ولقد احتجت طعاماً لعيالي فضاق صدري وأبلغت إلى الفكرة في ذلك حتى أحرزت قوتهم فعندها طابت نفسي، لعنه الله وبريء منهم.. وأمرهم بلعنه**»[1].

وجاء عنه عليه السلام: «**لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنّة أو تحدّثون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة فإنّ المغيرة بن سعيد** ـ وهذا أيضاً من رؤوس المغالين ـ **لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي الباقر عليه السلام أحاديث لم يحدّث بها. فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنّا إذا حدّثنا قلنا قال الله عزّ وجلّ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»[2].

والمشهور عن عليّ عليه السلام: «**هلك فيّ اثنان: محبّ غال ومبغض قالٍ**».

ونقل كتاب «علماء الشيعة في مواجهة البدع والخرافات» للإمام الخالصي: أنّ القوم في الكوفة لبوا للإمام عليه السلام فدخل عليه بعض أصحابه فأخبره بذلك فخرّ الصادق عليه السلام ساجداً وبكى قبل أن يلوذ بأصبعه ويقول بل عبدالله قنّ داخراً، ورفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته..

وكان الصادق عليه السلام يحذّر من المغيرة بن سعيد الذي دسّ أحاديث الغلو حتى وصلت إلى ثمانية عشر ألف حديث وكذلك حذّر من ابن الخطاب الكوفي وغيرهما.

وعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال لي يوماً: «**يا أبا محمد إبراءٌ ممّن**

(١) معجم رجال الحديث، ج١٨ ص٢٩٨.
(٢) م. ن، ج١٨ ص٢٥٨.

يزعم أنّنا أرباب فقلت برأ الله منه. فقال إبراء ممّن زعم أنّنا أنبياء فقلت برأ الله منه»[1].

وفي هذه الأيام نرى أنّهم يجعلون مرتبة الإمام فوق مرتبة النبوّة فكيف ذلك؟

خرج في التوقيع المنسوب للإمام المهدي عليه السلام رداً على مَن يقول بأنّ الأئمة يقسّمون الأرزاق: إنّ الله تعالى هو الذي خلق الأجسام وقسّم الأرزاق لأنّه ليس بجسم ولا حال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأما الأئمة عليهم السلام فإنّهم يسألون الله تعالى فيخلق ويسألونه فيرزق إيجاباً لمسألتهم وإعظاماً لحقّهم.

وهذا المتسالم عليه في كلمات الأئمة والعلماء من بعدهم أن دعاءهم مجاب، أما أن يرزقوا أو يخلقوا أو غير ذلك فسبحانه وتعالى عمّا يشركون. وأختتم بدعاء للرضا عليه السلام وإن كانت الأحاديث كثيرة جداً في هذا المجال. ولكن القوم أغفلوها رعاية لمصالحهم أو..

روى الصدوق في الاعتقادات عن الرضا عليه السلام: «**اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة فلا حول ولا قوة إلا بك. اللهم إني أبرأ إليك من الذين ادعوا لنا ما ليس لنا بحق . اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا. اللهم لك الخلق ومنك الأمر وإياك نعبد وإياك نستعين اللهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين. اللهم لا تليق الربوبية إلا بك ولا تصلح الإلهية إلا لك... اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. اللهم من زعم أننا أرباب فنحن إليك منه براء ومن زعم أن إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن إليك منه براء....**» إلى آخر الدعاء.

(١) معجم رجال الحديث، ج١٤ ص٢٥٣.

وأختم برواية الإمام الباقر عليه السلام قوله لأصحابه: «**يا معشر الشيعة كونوا النمرقة الوسطى، يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي**.. فقال له رجل: وما الغالي؟ قال عليه السلام: **قوم قالوا فينا ما لا نقوله في أنفسنا ونحن المخلوقون يرفعوننا إلى درجة تقترب من درجة الله، فليس أولئك منا ولسنا منهم ثم قال:والله ما بيننا وما بين الله قرابة ولا معنا من الله براءة ولا لنا على الله حجة ولا يتقرب إلى الله الا بالطاعة فمن كان مطيعا لله تنفعه ولايتنا ومن كان عاصياً لله لا تنفعه ولايتنا ويحكم لا تغتروا**».

بحث في الشفاعة

الشّفاعة من ضرورات الإسلام لثبوتها بالأدلّة القطعية إذ إنّ كلّ أمر عَقَديّ لا بدّ من ثبوته بأدلّة قطعية من الكتاب أو السُّنّة المتواترة أو التي هي قريبة من التواتر. والشفاعة ثبتت بأدلة قرآنية كما سنبيّن، لأنّ الله تعالى قد يغفر للإنسان بشكلٍ مباشر، وقد يغفر له بواسطة الشفعاء الذين أَذِنَ الله لهم بالشفاعة، وكما أنَّ الله يغفر لمن يشاء، فالشفعاء قد يشفعون لمن يشاء الله لهم أن يشفعوا له، لأنّ إرادتهم لا تتخلّف عن إرادة الله تعالى، بحيث يأخذون ببرنامج الشفاعة الذي رسمه الله سبحانه، فليس مجرّد وجود مبدأ الشفاعة يجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة عليهم السلام أو المؤمنين شفعاء، لأنّ الإنسان يحبّهم، بل هناك خطّ للشفعاء رسمه الله تعالى لا يتخطّاه أحد.

وللبحث جهات عدة

أولاً: الشفاعة لغة: هي من الشفع أي الزوج وهو ضم الشيء إلى مثل، ويقابلها الوتر وهو الفرد، ثم أطلقت على انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدته .

وللشفاعة معنى عرفي لا دخل له في الدين أبداً، أخذ به بعض الناس وادخلوه في الدين زوراً، ولها معنى شرعي.

المعني العرفي كما هو واضح لدى الناس الاستفادة من مركز شخص

ذي نفوذ ليشفع لمجرم هنا أو مسيء هناك، فيغيّر القاضي الحكم عليه مستفيداً من منصبه، والشفيع هنا قد يرغب باستنقاذ شخص ما عليه تنفيذ حكم فيقوم الشفيع باستضعاف مَن سينفّذ الحكم ليغيّر رأيه مستغلاً نفوذه عليه. وهذا الرأي لا مكان له في الشرع أبداً.

المعنى الشرعي للشفاعة

الاتجاه الأول: إنَّ الله تعالى يشفّع أناساً اختصّهم بكرامته، وأراد إظهار منزلتهم عنده، لأنّ الناس كانوا في الدنيا لا يعرفون مكانتهم، فيشفعون لأناس أراد الله أن يفتح أبواب رحمته لهم عبر برنامج وضعه الله للشفاعة، وليس معنى هذا منافاته للعدل، إذ العدل يقتضي أن يُعاقَب المجرم على جريمته، ولكن هناك عفو إلهي يترافق مع هذا العدل، ليخرج الإنسان من العذاب بعد حين إلى الجنّة لعدم استحقاقه الخلود أو ما إلى ذلك. . . .

ضوابط الشّفاعة قرآنياً

نجد في القرآن الكريم آيات رفضت أيَّ لون من ألوان الشفاعة للمجرمين غير طريق الإيمان والتوبة والعمل الصالح في الحياة الدنيا وقبل الموت، وإليك نموذجاً من ذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾[المدثر: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾[البقرة: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾[غافر: ١٨] وآيات أخرى لسانها نفي الشفاعة مطلقاً أو مقيّدة بالظّالمين، ممّا يفيد أنّها متجهة إلى أنّ الشفاعة يوم الجزاء لا تكون إلا لله تعالى، كقوله: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً**﴾[الزمر: ٤٤] أو لمن أَذِنَ له، أما مَن ظلم نفسه بالكفر والإلحاد والانحراف الكبير والشرك وترك الصلاة (كما في الروايات) والإدمان على بعض الكبائر فمثل هؤلاء ليس لهم شفاعة.

الاتجاه الثاني

نرى أنّ الله تعالى جعل الشفاعة لبعض من اصطفى أو ارتضى وقيَّد الشفاعة بإذنه، ليدلّل على ضوابط جعلها للشفيع عليه أن يسلكها إنقاذاً لمن أراد الله تعالى أن يغفر ويعفو عنه عبر هؤلاء الشفعاء، إظهاراً لفضلهم عنده، قال تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾[البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾[سبأ: ٢٣] وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً**﴾[مريم: ٨٧]. فهذه الآيات توحي بما قلناه من وضع برنامج يرتضيه الله تعالى ويرسمه للشفعاء، ممّا يعني أنّه ليس للشفيع أن يشفع كما يتصوّر البعض لمجرّد أنّه نذر لهذا الولي أو لذاك نذراً آخر، أو أقام له مجلس عزاء أو وصله بفعل خير، أو ما إلى ذلك ممّا اعتقده بعض الناس.

إساءة فهم الشفاعة

ثلاثة أصناف من المسلمين أساؤوا فَهْمَ الشفاعة:

الأول: اعتقدوا أنَّ الشفاعة الأُخروية كالشفاعة الدنيوية، وذلك ممّا يقدّمه الشفعاء من وساطات لدى السلطان أو الحكّام لتغيير الأحكام، واعتقدوا أنَّ الشفاعة تؤدّي إلى التشجيع على ارتكاب الذنوب وترك المسؤوليات.

الثاني: وهم الوهابية الذين أنكروها استناداً لبعض الآيات واعتبروها شركاً لأنّ الشفيع شريك مع الله تعالى.

الثالث: وهم بعض النّاس ممَّن ينتسبون إلى التشيّع قديماً وحديثاً، حيث اعتبروا أنّ الشفاعة حاصلة لهم لمجرّد موالاتهم لأهل البيت عليهم السلام،

مستندين إلى روايات خاطئة، مكذوبة، تصل إلى ٩٦ رواية، مفادها أنَّ أهل البيت عليهم السلام يشفعون لشيعتهم، ومنها أيضا «حبُّ عليّ حَسَنة لا تضرُّ معها سيّئة».

الاتجاهات الثلاثة خاطئة

ونحن هنا لا نريد التوسّع في الردّ على هذه الاتجاهات الثلاثة بشكلٍ موسّع، لظهور فسادها، فالصنف الأول من المسلمين خلطوا بين مفهوم الشفاعة العرفي والديني، وقد ظهر الفرق ممّا قدّمنا، وأنّ مسألة التراخي في الواجبات ومجرد الالتزام بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام الذين أعطاهم الله الشفاعة لأنّهم أطاعوه واتقوه غير كافٍ، بل ذلك ليكون حافزاً للناس على الاقتداء بهم لا التراخي في العمل بنهجهم، وهذا يُصلح للأفراد المذنبين ويبعث فيهم الصحوة واليقظة ليوفّر في نفسه الشروط التي تؤهّله للخروج من وضعه السيّىء الموجب للعقاب إلى الوضع الجيد، فللشفاعة مفهوم سامٍ في الإسلام، وهذا المعنى الأول مردود كما ذكرنا وقد اشترك فيه بعضُ السّنة والشيعة في الفهم.

وأما الثاني فواضح الفساد وهو فهم الوهابية، وهو مردود بما سنذكره ثالثاً، إذ إنّ الله تعالى هو مَن جعل الشفاعة لمن ارتضى الله وأذن له، فهم ينفِّذون برنامج وقوانين وشروط الله تعالى لا أنّهم مستقلّون عن الله تعالى. فهم لاحظوا الآيات النافية للشفاعة مطلقاً: ﴿**مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾[السجدة: ٤] ولم يلاحظوا الآيات الأخرى.

وأمّا الاتجاه الثالث: فهو بعيد كلّ البعد عن الإسلام وخطّ الإيمان، فمجرد الانتساب والحبّ للنبيّ وأهل بيته لا يؤهّلان الإنسان للشّفاعة من دون عمل، وما استندوا عليه من روايات مخالف للقرآن، والرّوايات صحيحة كثيرة في هذا المجال.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[الزلزلة: ٧-٨] وقوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾[النساء: ١٢٣].

وأمّا الروايات فكثيرة منها وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس بين الله وبين أحد شيء يعطي به خيراً أو يدفع به سوءاً، إلا العمل فلا يتمنّى متمنٍّ ولا يدعِينَّ مدّعٍ ألا أنّه لا ينجّي إلا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت**»، وقوله لابنته فاطمة ولعمّته ولعمّه: «**يا عباس بن عبد المطلب، يا عم رسول الله، اعمل لما عند الله فإنّي لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية بنت عبد المطلب يا عمة رسول الله اعملي لما عند الله، فإنّي لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد اعملي لما عند الله، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً..**»

وهكذا قول الإمام زين العابدين عليه السلام لطاووس اليماني: «**دَع عنك ذكر أبي وأمي وجدّي، إنّ الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً**».

وقول الإمام الباقر عليه السلام: «**أفَحسب الرجل أن يقول أُحبّ علياً وأتولّاه، فمحمّد خيرٌ من عليّ، أفيكفي أن يقول أُحبّ محمداً ثم لا يكون فعّالاً، مَن كان وليّاً لله فهو لنا وليّ، ومَن كان عدوّاً لله فهو لنا عدوّ**».

والروايات بهذا المعنى كثيرة، فليست المسألة أن الزّهراء عليها السلام كما يقولون تنتقي شيعتها كما ينتقي العصفور الحَبَّ الجيّد من الرديء، ثم تقف على باب الجنّة لتطالب بشيعة شيعتها، وفي رواية، بمحبّي شيعتها، ليصل الأمر إلى كافر هنا ومشرك هناك، إنّ هذه الفكرة فكرة يهوديّة، إذ تعتقد كلّ فرقة أنّها مختارة وناجية اتّكالاً على الانتماء إلى تلك الفِرقة، وهذا كلّه مخالف للقرآن ومحبط للإيمان.

فكونهم شفعاء لا يعني الاتكال على مكانتهم عند الله، فنستهين بالأعمال ونبتعد عن التكاليف ونطلب منهم الحوائج، فهذه كلّها أماني كما ذكرت الأحاديث، والصحيح أن نطيع الله فيما أمر، وننتهي عن ما نهى، ونطلب من الله لا منهم أن يشفّعهم بنا، ونطلب منه بهم قضاء حوائجنا.

الشّفاعة في السّنة

ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» فقال ابن أبي عمير للكاظم عليه السلام يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر؟ والله يقول: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾[الأنبياء: ٢٨] ومَن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى به؟ فقال: **يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النّبي كفى بالندم توبة، ومَنْ لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة، وكان ظالماً والله تعالى يقول: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾**[غافر: ١٨] (١).

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**اعلموا أنّه ليس يغني عنكم الله من أحد شيئاً، لا مَلَكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشّافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه**»(٢). وهذا صريح في عبارته أنّ الطلب يكون من الله، حتى في مسألة الشفاعة، لا من أحد سواه، وهي ثابتة بلا إشكال كما رسمها الله سبحانه.

ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا قمت المقام المحمود تشفَّعت في أصحاب**

(١) تفسير البرهان ج ٣ ص٥٧ .
(٢) عيون أخبار الرضا، ج١ ص٣٥.

الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم»[1].

ورد عن رسول الله ﷺ: «**الشفاعة لا تكون لأهل الشك والشرك، ولا لأهل الكفر والجحود، بل تكون للمؤمنين من أهل التوحيد**»[2].

وعنه ﷺ: «**رجلان لا تنالهما شفاعتي: صاحب سلطان عسوف غشوم، وغال في الدين مارق**»[3].

وعنه ﷺ: «**لا ينال شفاعتي من استخفَّ بصلاته ولا يَرِدُ عليَّ الحوض لا والله**»[4]. وكانت وصيّة الإمام الصادق عليه السلام حين وفاته جمع قرابته وأهله وقال: «**إن شفاعتنا لن تنال مستخفّاً بالصّلاة**».

وهذه الأحاديث وأمثالها تعطينا فكرة أنّ مَن لا تناله الشفاعة لا يكون مأذوناً لهم بشفاعته ولا ممّن ارتضى سبحانه عنهم ، ممّا يؤكد ما قلناه من أنَّ هناك خطاً رسمه الله للشّفاعة، لا يحيد عنه الشفعاء.

ورد عنه ﷺ: «**الشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة**»[5]، وعنه ﷺ: «**في المؤمنين مَن يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقلّ المؤمنين شفاعة يشفع لثلاثين إنساناً**»[6].

۞ ۞ ۞

(١) أمالي الصدوق، ص١٧٧.
(٢) البحار، ج ٨، ص٥٨.
(٣) كتاب الخصال، ص٦٣.
(٤) الكافي، ج٦ ص ٤٠٠.
(٥) البحار، ج٨، ص٥٨.
(٦) المصدر نفسه.

الشعائر الحسينيّة

أولاً: البحث يقع حول معنى الشعائر وهل هي توقيفيّة أو لا؟

الشعائر جمع شعيرة، ومعناها كما عرّفوها: «مناسكه وعلاماته وآثاره وأعماله»[1] واصطلاحاً هي أعلام دينه ومتعبّداته التي أشعرها لعباده، بمعنى أنّ الله تعالى جعلها أعلاماً لهم، كما جعل تعالى مثلاً الصفا والمروة من شعائره: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾[البقرة: ١٥٨] أو كما جعل المساجد والمناسك والأنبياء عليهم السلام وأعظمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وما إلى ذلك ممّا نسبه الله إلى نفسه حيث قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[الحج: ٣٢].

فإذا تمّ ذلك نقول: هل الشعيرة أمر مختصّ بالله تعالى، بحيث يشرّعه الله مباشرة أم يمكن لنا أن نوسّع دائرته وننسبه إلى الشَّرع ما دام هناك مصلحة ما للدين؟

إذا لاحظنا الآيات القرآنية نرى أنّ الشعائر توقيفيّة بمعنى أنّه لا بدّ من ورود النص الصحيح على كوْنِها شعيرة أو متعبَّداً للنّاس، أي متوقفة على النص، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾[البقرة: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ**﴾[الحج: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾[المائدة: ٢].

(١) لسان العرب، مادة شعر.

نستوحي من هذه النِّسبة في الآيات، أي نسبة الشعيرة إليه تعالى، أنّه لا مسوّغ ولا مجوّز لأن تُنسب أيّ شعيرة حقيقة إلى أي مخلوق، إذا لم يكن فيها نصّ صحيح وصريح، ولذلك نفى سيدنا الأستاذ المرجع السيد فضل الله ﷺ كثيراً ممّا سُمّي بالشعائر، لأنّها لم تقف عند نصٍّ قرآني أو حديثي شرّعها، وكذا أستاذه الكبير السيد الخوئي ﷺ عندما قال إنّ التطبير: «لم يَرِد نصّ بشعيريّته فلا طريق إلى الحكم باستحبابه»[1].

وعليه القول ثابت من ناحية علمية بأنّ الشعائر توقيفية نصّية، أي متوقف ثبوتها على النص الوارد فيها فيما شرّعه الله، أو ورد بسندٍ صحيح عن لسان المعصوم، أمّا ما يُمارس ويُقال عنه بأنّه شعائر حسينيّة في زماننا هذا، فتارة يكون أمراً محبوباً منصوصاً عليه وأخرى لا، فإن كان منصوصاً عليه كزيارة الحسين عليه السلام ولو عن بُعد، ولا إشكال عندنا بأنّ الحسين عليه السلام نفسه هو شعيرة، وتعظيمه يكون تعظيماً لشعائر الله عزّ وجلّ لكن المسألة لا بدّ أن تخضع للبحث العلمي من حيث الممارسات التي نقوم بها نحن أحبابه وأنصاره، فهل تصبح مشروعة لمجرّد كونها منسوبة إلى الشعيرة أو لمجرّد ممارستها أيّام عاشوراء.

أولاً: لا بدّ من التوقّف في المسألة، فيتّضح ممّا سبق أنّ الشعائر توقيفيّة لا بدّ فيها من النصّ، فإذا أتينا إلى كلِّ فعل يُمارس في الإحياء، لا بدّ أن نُخضعه لهذه القاعدة. وعلى هذا فهل التطبير من الشعائر الحسينيّة؟

قلنا: إنّ الشعائر توقيفية، لا بدّ فيها من ورود النص القرآني، لأنّ الله تعالى نسب الشعيرة إليه كما أشرنا في الآيات سابقاً، أو النصّ الحديثي الصحيح. وفي المقام لا بدّ من عرض أهمّ أدلة المجوِّزين للتطبير لنرى إن كان يمكن نسبته إلى الشعيرة أو لا؟ وكذا نعرض أدلّة المانعين:

(١) المسائل الشرعية، ج٢ ص٣٣٧.

من أهم أدلّة المجوِّزين:

١ـ لا دليل على حرمة التطبير، فالأصل هو الجواز رغم الضرر الواقع فيه على البدن.

٢ـ البكاء على الحسين عليه السلام مستحبّ، وهو بحاجة إلى محفِّز ومنه ضرب الرأس بالسيف.

٣ـ مواساة الحسين عليه السلام وأصحابه الذين جُرحوا وقُتلوا في كربلاء.

٤ـ ضرب العقيلة زينب لرأسها بالمحمل حيث سالت منه الدماء يوم عاشوراء، دليل على جواز هذا الفعل.

الردّ على هذه الأدلة الأربعة

الردّ على الدليل الأول

مردود بأدلّة الضرر، لأنّ الله تعالى لم يسلّط الإنسان على نفسه ولم يجوّز له الإضرار بها، كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «**ولكنّه خلق الخلق فعلم ما تقوم به أبدانهم وما يُصلحهم فأحلّه لهم وأباحه لهم وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه**»[1].

وقد أجمع الفقهاء على حرمة الوضوء مع خوف الضرر الموجب لتشقّق الجلد أو خشونته في الشتاء، وحوّلوا الوظيفة إلى التيمّم[2] فإذا كان هذا الوضوء حراماً لأنّ فعله فيه ضرر، وهو أقل ضرراً بكثير من التطبير وجرح الرأس وضرب الظهر والصدر بالسلاسل المشفّرة وإدمائها، فبطريق أولى أن تكون هذه الأمور من المحرّمات، لأنّ ذلك إيذاء أكبر بكثير من تشقق الجلد عند الوضوء، فلا إشكال في حرمتها.

(١) وسائل الشيعة ج٢٥ ص٩.

(٢) منهاج الصالحين ج١ ص٩٨.

فضلاً عن أدلّة الضرر التي أشرنا إليها إضافةً إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[البقرة: ١٩٥] أو أدلّة حرمة ارتكاب مطلق الضرر، ولو كان خفيفاً كما ذهب اليه الشيخ الأنصاري والسيد الأستاذ ومَنْ تبعهما.

الردّ على الدليل الثاني

صحيح أنّ البكاء على الحسين عليه السلام يجعلك ترتبط بقضيّته ارتباط الحقّ والمعرفة والوعي، ويقودك إلى رفض الظلم في كلِّ مواقعه والتزام نهج الحسين عليه السلام، ولكن أراد أهل البيت عليهم السلام الدمعة الواعية لا الدمعة المتخلّفة التي تُسيء إلى تاريخهم والتي تشوّه حركتهم، لأنّ مجرّد البكاء الخالي من التفكّر، والذي لا يقود إلى التوبة وتصحيح السلوك، ليس فيه أيّ مواساة، فلا ترى أنّ عمر بن سعد وجيشه بكوا على الحسين عليه السلام يوم العاشر، فهل نفع هذا البكاء؟ ثم إنّ هذا القول هو ضرب استحسان محض، أن يقال إنّ التطبير محفّز للبكاء، والاستحسان ليس من ديننا.

الردّ على الدليل الثالث

الردّ نفسه على الثاني وزيادة نقول: المواساة تكون بالتزام نهج الحسين عليه السلام والسَّير على خطاه، وضرب الرأس وجرح الجسد في مواقع رفض الظلم وفي ساحات الجهاد وليس بعقل بارد كما قال السيد الأستاذ حيث عبّر بقوله: «إنّ الحسين جرح نفسه بالمعركة ضدّ الظالمين والمواساة له أن نُقتل حيث قُتل وأن نُجرح حيث جُرح لأنّ الحسين عليه السلام لم يجرح نفسه بعقلٍ بارد وهو يسير في الطرقات، فمن أراد مواساة الحسين عليه السلام فعليه مواجهة الظالمين في ساحات المعركة» ويذكر الشهيد مطهري في الملحمة الحسينية «إنّ هذا أمر مثير للسخرية، فهل تحتاج الزهراء بعد مرور ١٤٠٠ عام على المأساة إلى المواساة، في الوقت الذي نعلم فيه بأنّها الآن مجتمعة مع الحسين عليه السلام ! وهل أنّ فاطمة عندكم طفلة صغيرة حتى

تظلّ تلطم وتبكي بعد ١٤٠٠ عاماً حتى نأتي لنعزّيها ونأخذ بخاطرها؟ هذا هو الكلام الذي يخرّب الدين»[١].

الردّ على الدليل الرابع

لا إشكال عندنا أنّ ما استُدلّ به من فعل زينب عليها السلام افتراء عليها ومخالف لأخلاقها والتزامها بوصية أخيها الحسين عليه السلام حيث قال لها: «**إيهاً يا أُختاه! اتّقي الله، وتَعزّي بعزاء الله، واعلمي أنّ أهل الأرض يموتون وأنّ أهل السماء لا يَبقون، وأنّ كلّ شيء هالِك إلا وجه الله، الذي خلق الخلق بقُدرته، ويَبعث الخلق ويُعيدهم وهو فردٌ وحده. جدّي خيرٌ مني، وأبي خيرٌ منّي، وأُمّي خيرٌ منّي، وأخي [الحسن] خيرٌ منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُسوة**»[٢].

فعزّاها بهذا ونحوه، وقال لها: «**يا أُختاه إني أقسمتُ عليكِ، فأَبرّي قَسَمي لا تَشُقّي عَلَيّ جَيباً، ولا تَخمشي عليّ وجهاً، ولا تَدعي عليّ بالويل والثُبور إذا أنا هلكتُ**»[٣]، فحاشا لزينب أن تخالف وصية أخيها وحاشا لها أن تجزع إلى هذا الحدّ، لأنّه مخالف لحكم ربّها سبحانه وتعالى، ولأخلاق أهل البيت الذين علّموا الناس الصبر على البلاء فهم أول مَن يصبر عليه، وحاشا لامرأة عظيمة كزينب التي رفعت جسد أخيها نحو السماء وهو مضرَّج بدماء جراحاته لتقول: «**اللهم تقبّل منّا هذا القربان**»[٤] أن يصدر منها هذا الفعل وسنورد بحثاً مختصراً حول حرمة الجزع مطلقاً.

ثمّ لو تنزّلنا جدلاً وقلنا بأنّ زينب ضربت رأسها بالمحمل، السؤال من قال بأنّها فعلت ذلك عن قصد ومَن يثبت أنّها أرادت أن تُخرج الدم من

(١) الملحمة الحسينيّة، ج ١، ص ٣٥.
(٢) الإرشاد، المفيد، ص ٢٣٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الكبريت الأحمر، ج٣ ص ١٣.

رأسها؟ ثم إنّ زينب عليها السلام ليست من المعصومين حتى يكون فعلها دليلاً على الإباحة والجواز، لأنّ السُّنّة التي يؤخذ بها دليلاً لا بدّ من صدورها من المعصوم، أي قوله وفعله وتقريره، أما غير المعصومين حتى لو كانت عصمتهم مكتسبة كزينب عليها السلام، لا يصلح فعلُها دليلاً على الجواز، هذا لو قلنا بثبوت الرواية من أصل، والرواية غير ثابتة كما عرفت، حيث قال عنها العلامة المجلسي في البحار إنّها رُويت مرسلة عن مسلم الجصّاص، وهي مناقضة للرواية التي أوردناها، ثم إنّ هذه العادة لم تكن في زمن الأئمة عليهم السلام، ولم ينقل أنّه فعلها أحد بعدهم من كتّاب التاريخ إلى زمن الصفوية، ويؤكّد ذلك السيد محسن الأمين في كتابه التنزيه بقوله: إنّها عادة دخلت إلى الشيعة من الهنود القدامى[1]، ويقول الشهيد مطهري في كتابه (الإمام علي عليه السلام في قوتيه الجاذبة والدافعة): «إنّها جاءت من أرثوذكس القفقاز وسرت في مجتمعنا كالنار في الهشيم»[2]، والكلام نفسه للدكتور شريعتي حيث قال: إنّ الصفويّين استحدثوا وزارة سمّوها وزارة الشعائر الحسينية، حيث جال وزيرها على البلاد، وأتى بالتطبير الذي كان يُمارس يوم الصليب عند القفقاز. وكذلك قال غيره من المؤرخين إنّ الصور والتجسيمات أُدخلت على الشعائر وأصلها منهم. ويقول السيد الأمين في كتابه أعيان الشيعة: لم ينقل أن أحداً قام بهذا الفعل عندما كانت ملوك البلاد الإسلامية كدولة الفاطميين والحمدانيين والبويهيين الذين تشدّدوا في إقامة العزاء وتعطيل الأسواق. وأضاف قائلاً في مواجهة هذه العادة ومعتبراً أنّ ذلك «من المنكرات والبدع التي أُدخلت على الشعائر» وناصره السيد أبو الحسن الأصفهاني مفتياً بحرمة التطبير، وكذلك السيد هبة الدين شهرستاني، والشيخ عبد الكريم الجزائري، المجتهد الكبير والعلامة الشيخ

(١) من وحي الثورة، ص١٦٧.

(٢) راجع كتاب: الإمام عليّ عليه السلام في قوّتيه الجاذبة والدافعة ص١٦٥.

محسن شرارة، والسيد مهدي القزويني[1]، والشيخ الجمري والشيخ ناصر مكارم الشيرازي، والشيخ بهجت، والسيد كاظم الحائري، وكذلك الشيخ عبد الله نعمة التي يراها من الشوائب الغريبة البعيدة عن روح الذكرى، وكذا السيد الخامنئي أفتى بحرمتها واعتبرها مسيئة للمذهب، والسيد الخوئي اعتبر كلّ ما يوجب توهين المذهب فهو حرام تعليقاً على هذه العادة، وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (الإسلام والحياة): «وعلماء الشيعة بكاملها دون استثناء ينكرونها أشد الإنكار وإذا سكت عنها من سكت فإنّما يسكت خوفاً من بعض العوام الذين اتّخذوها سبيلاً للاتجار والكسب قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[آل عمران: ١٧٥]»[2]. وبالموقف والشجاعة نفسها قال السيد هاشم معروف الحسني: «إنّها ظاهرة شاذّة ودخيلة وإنّها أساءت إلى المآتم الحسينية وإلى التشيّع وقد استغلّها أعداء الشيعة للتنديد والتشويه والسخرية»، نقلاً عن كتابه من وحي الثورة الحسينية[3]، طبعاً وهناك علماء حرّموها لم نحصهم في هذا المختصر، وآخرهم المرجع الكبير السيد فضل الله الذي اعتبرها ظاهرة متخلّفة تسيء إلى الدين وخطّ أهل البيت عليهم السلام.

(١) أعيان الشيعة ج١٠ ص١٧٨.
(٢) الإسلام مع الحياة، ص ٦٨.
(٣) من وحي الثورة الحسينيّة، ص ١٦٧.

الجـزع

لقد حرّم الإسلام الجزع، والجزع هو نقيض الصبر[1] وذلك بأن يصل الإنسان إلى حالة يفقد معها توازنه أمام المصيبة فيلطم خدّه عند المصيبة أو يجرح نفسه أو يشقّ جيبه وثيابه.

وأمر الإسلام بالصبر عند نزول البلاء وحلول المصيبة، وأن لا يخرج الإنسان عن توازنه لأنّ الله تعالى هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للأشعث بن قيس معزّياً إياه بابنه: «**أن تصبر ففي الله من كلِّ مصيبة خلف يا أشعث إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور**»[2]. فالقدر جارٍ على كلِّ حال شئت أم أبيت، لكنّك مع الصبر عليه تُؤجر، ومع عدم الصبر عليه وإظهار الجزع، تُؤثم.

وربما يقال: صحيح إنّ حُرمة الجزع في الإسلام ثابتة، ولم يخالف فيها أحد من الفقهاء، ولكن قد نجد استثناءً في بعض كلماتهم بخصوص قضية الحسين عليه السلام في كربلاء فإنّ عظم المصيبة التي جرت عليه يرخص أمامها أي جزع، أو أي نوع من اللطم الدامي، أو جرح الخدود، أو ضرب الرؤوس، أو وضع الآلات الحادّة داخل السلاسل وضرب الظهر بها وإدماؤه، أو الزحف على الطرقات بما يؤذي الجسد، أو ما إلى ذلك ممّا

(١) لسان العرب، القاموس المحيط، الصحاح في اللغة، مادة جزع.
(٢) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، ص٢٩١.

نشهده في زماننا.

ولكن ذلك لا يمكن أن نوافق عليه، لأنّ الاستثناء أولاً يحتاج إلى دليل خاص وهو مفقود في المقام، بل قام الدليل على خلافه من حرمة الضرر وعدم تسلّط الناس على أنفسهم، إضافة إلى فعل المعصومين عليهم السلام أو نهيهم عن ذلك، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يغسّل رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أعظم من الحسين عليه السلام يقول صراحة وهو يؤبّنه: «**ولولا أنّك أمرتَ بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً، وقلّا لك، ولكنّه ما لا يُمْلك ردُّه، لا يُستطاع دفعه**»[1] وموضع الشاهد (فلولا) فهذا دليل على حرمة الجزع حتى على أعظم الخلق الذي هو رسول الله صلى الله عليه وآله فمن أين لكم بهذا الاستثناء؟

بل ورد عندنا عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام كما يروي الصدوق: «**إذا أنا متّ فلا تخمشي عليّ وجهاً، ولا ترخي عليّ شَعْراً، ولا تنادي بالويل ولا تقيمي عليّ نائحة**» ثم قال: «**هذا المعروف الذي قال الله عزّ وجل في كتابك: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾**[الممتحنة: ١٢]»[2]، وهذا دليل واضح ونهي صريح عن مثل هذه الأعمال التي يقوم بها الرواديد من ضرب خدّه حتى يدميه أو صدره كذلك، لأنّه ليس من المعروف الذي أمر به الله تعالى وفي الكافي أن عليّاً عليه السلام قال: «**مروا أهاليكم بالقول الحسن عند موتاكم، فإنّ فاطمة لما قُبض أبوها أسعدتها بنات هاشم، فقالت: اتركن التعداد، وعليكن بالدعاء**»[3]. هذا مضافاً إلى أحاديث كثيرة وردت في المقام تنهى عن الجزع على أيِّ أحد، ولو كان جائزاً لفعلته الزهراء عليها السلام على والدها لأنّه أحقّ مَن يُجزع عليه، ولو كان

(١) الأمالي، المفيد، ص٦٠.
(٢) معاني الأخبار، الصدوق، ٣٩.
(٣) وسائل الشيعة، ج٣، ص٢٤١.

كذلك لفعله علي عليه السلام، ولكنّنا نرى أنّه التزم بالنّهي الذي نهاه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أين جاء هذا الاستثناء على الحسين عليه السلام؟ ولا يمكن الاعتماد في ذلك لمجرّد وجود رواية هي غاية في الضعف من حيث السند ومفادها: كلّ الجزع حرام إلا على الحسين عليه السلام، فمع كلّ هذا الكم من الأدلّة المانعة لا يمكن الاعتماد عليها.

أدلّة المانعين

إضافة إلى الردود التي تُظهر حرمة التطبير وغيره ممّا يُسيء إلى الجسد وشموله لحرمة مطلق الضرر فإنّنا نلاحظ بعض الفتاوى، كما إذا خاف الإنسان خشونة الجلد وتشقّقه من استعمال الماء، فالوظيفة تنتقل إلى التيمّم، ولا إشكال أنّ مثل هذا النوع من إيذاء الجسد أقلّ بكثير من التطبير وضرب الزنجير: إضافة إلى ما تقدّم قد يقال:

أولاً: إنّ التطبير وضرب الزنجير وبعض الأفعال الأخرى تحرُم بالعنوان الثانوي لو تجاوزنا الحديث عن العنوان الأولي، لأنّها مسيئة للمذهب ولخطّ أهل البيت عليهم السلام بحيث تُوجب السخرية له ولمعتقداته، كما نلاحظ في هذا الزمن خصوصاً المشاهد التي تُبثّ على الشاشات العالمية من تطبير الأطفال، ممّا يعلِّق عليه العالم بأنّه إجرام بحقّ الطفولة، وقد علّق رجل أجنبيّ على مواقع التواصل عندما شاهد تطبير الأطفال قائلاً: لو لم يكن صاحب الذكرى متوحّشاً لما فعلوا ذلك، وغيره كُثُر ممن يصفوننا بذلك. أليست هذه إساءة عظمى للحسين عليه السلام؟! وقد أمرنا أهل البيت عليهم السلام أن نُبعدهم عن كلِّ سيّئة تُنسب إليهم، فقد ورد في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**أحبّونا حبّ الإسلام فإنّه ما برح حبّكم لنا حتى صار علينا عاراً**»[1]. وعنه عليه السلام: «**أحبّونا حبّ الإسلام فوالله ما زال**

(١) المناقب، ابن شهرآشوب، ج٤ ص١٦٢.

تقولون ما ليس فينا حتى بغضتمونا إلى الناس»[1].

وإن كان هذا الحديث وارداً في مقام دفع الغلو والردّ على المغالين الذين ينسبون إلى أهل البيت عليهم السلام ما ليس فيهم، إلاّ أنّه يمكن أن يندرج فعل التطبير ممّا ينسبه الناس إلى الشعائر تحت ما (يُبغّض الناس بهم) وفي الحديث: «**فاتّقوا الله وكونوا زيناً لنا، ولا تكونوا شيناً علينا، جرّوا إلينا كلّ مودّة، وادفعوا عنّا كلّ قبيح**»[2].

وقوله عليه السلام: «**وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، حبّبونا إلى الناس ولا تبغّضونا إليهم فَجرّوا إلينا كلّ مودة، وادفعوا عنّا كلّ شرّ**»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث التي أمرت بإبعاد الإساءة عنهم من الأفعال والأقوال التي تُنسب إليهم.

ثانياً: قد يدخل التطبير تحت عنوان البدعة في المقام لأنّه ليس من الشعائر المنصوص عليها كما بيَّنّاه في بداية الحديث من أنَّ الشعائر توقيفية، وإنْ ذهب البعض من العلماء إلى غير ذلك، وعليه فلا يجوز أن نقول عن شيء إنّه من شعائر الله إلا إذا وُجِدَ نصّ صريح وصحيح في المقام، ولا يُقال حينئذ إنّ هذا تهافت لأنّه لا إشكال عندنا أنَّ الحسين عليه السلام من شعائر الله وتعظيمه أمر واجب في شرعنا، أمّا نسبة هذا الفعل أو ذاك إلى الحسين عليه السلام لا يصيّره شعيرة، ولا يُخرجه من دائرة الحرمة إلى دائرة الحلِّية، لأنّ عنوان البدعة ينطبق عليه، وهو إدخال ما ليس من الدين في الدين، قد يقال، إنّ عنوان البدعة يشمل إحياء مواليد الأئمة والأنبياء وهي بدعة حَسَنة أو مستحبّة، والردّ على ذلك، أولاً سنبحث موضوع البدعة لاحقاً، ثانياً لو

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥ ص٢١٤.
(٢) بحار الأنوار : العلامة المجلسي، ج٧٥، ص٣٧٢.
(٣) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج١٢ ص٨.

سلَّمنا جدلاً إمكانية إدخال ما ليس من الدين في الدين لإطلاق العمومات عليها وشمولها لها كاستحباب إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام، ولكن لا بدّ من أن نقتصر في المقام على ما ينسجم مع الشريعة، أمّا توسعة الدائرة إلى المحرّم كالتطبير أو عنوان مُسيء للمذهب، فهذا لا تشمله عمومات الإحياء وأشباهها.

هذا كلّه إضافة إلى أنّ هذا الفعل وأمثاله لم يكن في زمن الأئمة ولا أَمَروا به ولا بعد زمن الأئمة ويظهر من بعض نصوص المؤرخين والباحثين أنّه ظهر في وقت حديث، ينقل السيد محسن الأمين قدس سره في كتابه «التنزيه» قوله: «ولم تكن هذه الأعمال معروفة في جبل عامل، ولا نُقِل أنّ أحداً فعلها فيه. وإنّما أحدثها فيه في هذا العصر بعض عوامّ الغرباء، وساعد على ترويجها بعض مَن يرتزق بها. ولم يُنقل عن أحد من علماء جبل عامل أنّه أذن فيها أو أمر بها في عصر من الأعصار، حتّى في الأعصار التي كان جبل عامل يتمتّع فيها بحرّيّته التامّة في عهد أمرائه من الشيعة»[1].

ويرى السيد هاشم معروف الحسني في كتابه (من وحي الثورة الحسينية) أنّ هذه العادة: «أُدخلت عليها بعض الزيادات التي تُسيء إليها وإلى التشيّع ويستغلّها أعداء الشيعة للتنديد والتشويه والسخرية، وهذه الزيادات قد أُدخلت عليها ـ كما هو الراجح ـ عن طريق الأقطار الشيعية بعد أن حكمها الشيعة وغلب على أهلها التشيّع كإيران وأفغانستان وغيرهما من الأقطار التي تسرّبت إليها عادات الهنود القدامى كالضرب بالسلاسل الحديدية والسيوف وما إلى ذلك من المظاهر التي لا يقرّها الشرع ولا تحقّق الأهداف التي كان الأئمة يحرصون عليها من تلك الذكريات»[2].

بينما يرى الشهيد مطهري أنّه: «إذا تجاوزت النِّحل وتعاشرت تبادلت

(١) التنزيه في أعمال الشبيه، محسن الأمين، ص٣٠.
(٢) من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسني، ص١٧٤.

العقائد والأذواق، وإن تباعدت في شعاراتها، من ذلك مثلاً سريان عادة التطبير، أي ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات، وضرب الطبول والنفخ في الأبواق من المسيحيين الأرثوذكس القفقازيين إلى إيران وانتشرت فيها انتشار النار في الهشيم»[1].

وعليه فالمسألة كما ترى هي بعيدة عن الجوّ الإسلامي وحركة الأئمة عليهم السلام والعلماء القدامى وغيرهم ممّن يسعون لإبعاد كلّ شائبة عن هذا الدين الحنيف وإظهار خطّ ونهج أهل البيت عليهم السلام بأرقى الأساليب التي ترجمتها أخلاقهم وسيرتهم الصحيحة وحركتهم في الحياة وكلماتهم النورانية، ممّا يجعلنا نتساءل كيف يمكن لعادة هندية أو مراسم قفقازية أن تصبح شعيرة إسلامية حسينيّة، وتلبس لبس القداسة حتى إذا ما وقف أحد بوجه ما أُدخل في الدين من تشويه خطّ ونهج أهل البيت الذي لا يخدم إلا ذوي الأهواء المتاجرين بالحسين عليه السلام وعزائه يصبح إنساناً سنّياً أو خارجاً عن المذهب أو ضالّاً مضلاً، وهل يحقّ لهؤلاء أصحاب الفتاوى الجاهزة والفكر السَّلَفي الشيعي الجديد والفرقة التي تَنْسِب لنفسها الولاية لأهل البيت عليهم السلام أن يكفّروا ويضلّلوا ويحكموا على كلّ مَنْ خالف هذا النَّهج المتخلّف حتى أصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً ممّا جرّ الويلات على أتباع أهل البيت تاريخيّاً؟ وهل يحقّ للفقهاء الذين تصدّوا للفتاوى أن يسكتوا عن كلِّ هذه الانحرافات ونسبتها إلى شعائر الحسين ليحافظوا على قداستهم، أو لأنّهم يخافون أن يواجهوا العوام كما قال أكثر من واحد منهم أو يبرّر البعض منهم بقوله اسكتوا عمّا سكت الله عنه، فينسبون السكوت إلى الله عزّ وجلّ وحاشاه ذلك، لأنّ الله لم يترك منكراً إلا ونهى عنه، وإذا كانوا يخافون من العوام فلماذا يتصدّون لقضاياهم، وهل سكت الأئمة عليهم السلام من أهل البيت عن الانحرافات التي حدثت في

(١) الإمام علي في قوّتَيْه الجاذبة والدافعة، مرتضى مطهري، ص١٨٠.

زمانهم، ألم يحاربوها؟ فقد حاربوا الجهل والتخلّف والغلو والخرافة، والسيرة مليئة بذلك، وكانوا يحاورون الناس والزنادقة ويتصدّون لتعليمهم في منى والكعبة والمسجد الحرام، أما مراجعنا فقد استقال الكثير منهم من التصدّي لشؤون الشريعة ومفاهيمها، واقتصروا على الفقه والأصول، وتركوا توجيه الناس وعقائدهم إلى الخطباء أصحاب المنابر وأكثرهم يحملون التخلّف والعقد ولا يفقهون الإسلام ولا يأخذون بأسباب المعرفة، يعتمدون على الحديث من دون عرضه على القرآن، ويؤولون القرآن لمصلحة الحديث، كأنّهم وكلاء الله في الأرض، وكأن الله رخّص لهم أن يفتروا عليه.

كـلام حـول البدعــة

عرّفوها بأنّها إدخال ما ليس من الدين في الدين[1]، وهذا التعريف هو من الوضوح إلى درجة لا يمكن التعليق عليه، فكلّ ما ليس من الدين لا يجوز نسبته إلى الدين، سواءً كان حراماً أو حلالاً أو مستحبّاً أو مكروهاً، لأنّه يندرج في دائرة التشريع الذي نهى عنه الله ورسوله، لأنَّ التشريع بيد الله تعالى ولم يأذن لأحد أن ينوب عنه في ذلك، قال تعالى: ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[يونس: ٥٩] وقال تعالى حكاية عن نبيّه ومبالغة في القول: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وحاشا لرسول الله أن يفتري على الله أو يأتي بحكم من عنده ولكنّ الله أراد أن يشدّد في القول، وبأنّه لا يأذن حتى لأعظم أنبيائه أن يأتوا بأحكام من عندهم، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**لا تمسكون عليّ بشيء إنّي ما أحللت لكم إلا ما حلّل القرآن وما حرّمت عليكم إلا ما حرّم القرآن**».

وعليه، إذا كان لا يجوز لرسول الله أن يفتي من عنده وأن ينسب حكماً إلى الشريعة برأيه، فكيف يجوز لمن هو أقلّ منه في ذلك؟ ولذا ورد في الحديث: «**مَن أفتى للناس بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار**»[2] وقد قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ**

(١) لسان العرب، مادة بدع.

(٢) الوسائل: الباب٤ من أبواب صفات القاضي، ح٣٣.

وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾[النحل: ١١٦].

نعم ربّما نصرف النظر عن بعض العادات التي تدخل تحت عناوين عامة أخرى كما لو أحيا الناس ميلاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام على أساس ما يدخل فيها من تسليط الضوء على سيرة هذا المعصوم، وذكر كلماته التي تذكّر الناس برسالته، فمن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو من باب «**أحيوا أمرنا**»، نحيي هذه الموالد لانطباق العمومات عليها، لا لأجل ورود روايات خاصة تؤكّد على ذلك، ونأسف أنّ كثيراً من الناس لا يُكْمِلون هذا الحديث عن الرضا عليه السلام بل يتوقّفون عند الفقرة المذكورة والتكملة «**رحم الله عبداً أحيا أمرنا**».

فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟

قال: «**يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**»[1]، فإذاً إحياء الأمر يكون بذكر علومهم وتعليم الناس أخلاقهم ودينهم وقرآنهم، لا أن نخترع عادة من عندنا نأخذها عن القفقاز أو الهنود أو الترك أو الصفوية أو الشيخية أو القاجارية ونُدخلها في الدين ثم نحوّلها إلى شعيرة من شعائر الله، نُلبسها ثوب القداسة ونضع أنفسنا مكان الله تعالى على سدّة الجعل والتشريع.

أساليب الإحياء

في هذا الفرع لا بدّ من البحث حول أساليب الإحياء المتنوّعة والتي تتطوّر مع مرور الزمن، ولا إشكال عندنا في إحياء مناسبة الحسين عليه السلام وكونه عليه السلام من أعظم الشعائر التي نتمسّك بها تعظيماً ونهجاً، وعليه فإنّ

(١) الكافي، الكليني، ج٣٢ ص١.

إحياء هذه الشعيرة قد يتصوّر على طرق متعدّدة مما نراه وقد يخترع أساليب أخرى مع تقادم الزمن والضابطة لكلّ هذه الأساليب هي أن لا تكون مسيئة أو مهينة لخط أهل البيت عليهم السلام، فإذا أوجبت التوهين أو الإساءة تصبح محرَّمة حتى لو كانت مباحة في العنوان الأوّلي.

وهناك إشارة إلى أن بعض طرق الإحياء التي تُوجب الضرر لا إشكال في حرمتها كما ذكرنا عند الحديث عن التطبير، فلا نعيد، ومنها اللطم الذي يوجب الإدماء، أو ضرب السلاسل سواءً أدمى أو لا، أو ضرب الخدود، كما رأيناه من بعض الرواديد يضرب خدّه حتى يدميه أو ما إلى ذلك من أساليب أوجبت توهين خطّ أهل البيت عليهم السلام وتصوير الشيعة أنّهم أشخاص متخلّفون حتى لو كان الفاعلون لها مخلصين في نيّاتهم واعتادوا إظهار محبّتهم لأهل البيت عليهم السلام بهذه الطرق.

وهناك طرق إحياء ربّما لا تُوجب التوهين، أو لا ترقى إلى حدِّ الحرمة، ولكنّها ليست حضارية كاللطم الفولكلوري الذي يُنزع فيه اللباس، ويرتفع اللاطم ثم ينحني ثم يلطم، هذا النوع ليس فيه أيّ فائدة تعود على الدين، بل ربما يقال بالتوهين لخطّ أهل البيت عليهم السلام، أما الأمور الأخرى كركضة الطويريج أو المواكب الحسينية فهذه لا إشكال فيها، بل ربما بعض ما يُقام في المواكب الحسينية من هذه الأمور المحبوبة التي توجب الأجر والثواب، وقد ابتدع بعض الأشخاص في زماننا مسيرة الزحف إلى المقام وأسموها كما سمعنا مسيرة الكلاب، أو بلّ الجسد كلّه بالطين والماء، أو جعل الأقفال في الأجساد أو غير ذلك من البدع المسيئة. والضابطة.. كما قلنا إنَّ من أعظم شعائر الله هو الحسين عليه السلام وإحياء ذكراه التي تُحيي الإنسان روحياً وسلوكياً وتُعرِّفه على الله، وتبعده عن الشياطين والمستكبرين والظالمين والمنحرفين والمفسدين والمغالين والمبتدعين والمقصّرين بحقّه من المسلمين، فكلّ عمل يُسيء إلى الحسين عليه السلام

وحركته ويحرّف مسار القضية الحقّة عن وجهتها، لنستغرق بعادات مخترعة وحركات مبتدعة، فيُسلّط الضوء على هذه العادات والأساليب، وننسى الهدف الكبير الذي لأجله خرج الحسين عليه السلام، كلّ هذه الأمور إذا أوجبت الإساءة فهي محرّمة.

عادات مخترعة

وهنا ألفت النظر إلى عادات أخرى تعوَّدها الناس في عباداتهم لا صلة لها بالدين، بل قد يقال بحرمتها إذا كان الاعتقاد بها إلى حدّ الإجابة للدعاء، كفتل الخاتم في الصلاة عند القنوت، فالسؤال لماذا يُبرم هذا الخاتم؟ هل يعتقد بأنَّ الله تعالى يستجيب به الدعاء؟ هذا من البدع المنهيّ عنها، لأنَّ الله تعالى لم يجعل أياً من المخلوقات أكرم من الإنسان، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[الإسراء: ٧٠] فكيف إذا كان هذا الإنسان مؤمناً موحّداً تزداد كرامته، بل تصبح أعظم من الكعبة المشرّفة على علوِّ منزلتها عند الله، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام وهو يقول لصاحبه: «**أرأيت هذا البيت ليُهدم سبعين مرة أهون عند الله من أن يُهان مؤمن**»، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما أشرف على البيت: «**إنّ الله حرّم منك واحدة وحرم من المؤمن ثلاثاً، دمه وماله وأن يُظنّ به ظنَّ السوء**».

وأما قولهم، إنّ العقيق أوّل جبل سجد لله ولذلك يعظِّمونه، وما إلى ذلك فهذا ممّا لم يثبت، خصوصاً أنّ الله تحدَّث عن السماوات والأرض حيث أمرها بطاعته والانقياد لقوانينه ففعلتا ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[فصلت: ١١] ولم يتحدّث عن جبل في الأرض أطاع قبلها، وعلى كلٍّ حال لو صدق الحديث فلا يقدّم ولا يؤخّر، ولم يجعل الله له كرامة على الإنسان،

بل الوارد أن نقدِّم في الدعاء أهل البيت عليهم السلام وأن ندعو الله بلسان لم نعصه به، أما هذا فكما ترى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ كانت له إلى الله عز وجل حاجة، فليبدأ بالصلاة على محمّد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإنّ الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط**»[1].

وهكذا هناك عادات أخرى نحافظ عليها وننتهج بها، ولم يثبت حتى استحبابها في الشريعة ونستهين بالواجبات، فمثلاً نستهين بآية السجدة عند تلاوتها، ولا نسجد ونكون في أكثر الأحيان داخل الحسينية، أمّا إذا سمعناها ونحن على الطرقات فلا نسجد حتماً، لأنّنا نستحي أمام الناس أن نفعل ذلك، أما إذا سمعنا ذِكْر الحجة بن الحسن (عج) نقوم واضعين أيدينا على رؤوسنا، فنترك واجباً أو على الأقل مستحبّاً إذا لم يكن هناك قارئ مباشر، بل نسمع ذلك من تسجيل ونحافظ على أمور نحن أدخلناها ووضعناها وجعلناها من المقدّسات.

أيّها القارئ العزيز، لقد أمرنا الله تعالى أن نتفهّم دينه وقرآنه وان تعي آذاننا ما تسمع فإذا سمعته ووعته وعرضته على الكتاب آمنت به، لأنّ الله تعالى سائِلُنا يوم القيامة عن ماذا نؤمن وما نفكّر به: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾[الإسراء: ٣٦] ويوم يأتي النداء: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾ [الصافات: ٢٤] كيف سنقدّم الجواب أمام الله عزّ وجلّ عند سؤاله لنا عمّا نعتقد ممّا أدخله الناس على الدين واستغرقنا به ونسينا أصوله.

علينا أن نحضِّر الجواب وأن لا نكون كالببغاوات نردّد ما نسمع بل نفكّر فيما نسمع لأنّ الله وهب لنا العقل الذي به يعرف الصادق عن الله فنصدّقه، والكاذب عن الله فنكذّبه، كما ورد عن الإمام الهادي عليه السلام.

(١) الكافي، الكليني، ج٢ ص٤٩١.

أيّها الأحبة، علينا أن نعي مسؤولياتنا ونبتعد عن الخرافة والغلو، وكلّ ما أُدخل على الدين، وهذه مسؤولية الجميع خصوصاً أهل العلم، لكي لا يكونوا مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله**»[1]... ونعوذ بالله من ذلك.

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٢٦٩.

مبحث الأدعيــة

إنّ الدعاء يمثّل مخّ العبادة وروحها وأساسها وخطاب العبد لربّه وجلوسه بين يديه وابتهاله إليه واتّكاله عليه ولجوئه إليه، لذا لا بدّ أن يكون منطلقاً في كلماته بأدعية تعطي المعنى المطلوب وتُغْني الروح وتسمو بها النفس وترتفع، ولذلك هناك من الأدعية ما ينبغي المحافظة والمواظبة عليها ومنها ما يجب الابتعاد عنه، والالتفات إلى مضامينه. فالدعاء كما يقول سيدنا الأستاذ السيّد فضل الله رضوان الله عليه: «عبادة تهزّ أعماق الإنسان بالشعور بوجود اللّه وحضوره في كلّ ملتقى للإنسان في ما يهمّه من أمور الحياة، وفي ما يثيره من شؤون الآخرة. وهي عبادة لا تُفرَض عليه كلماتها وأجواؤها من خارج ذاته، أو من خلال تعليمات مفروضة، بل هي مشاعره وأفكاره وحاجاته وآلامه وآماله وكلماته المنطلقة من ذاته في أسلوب عفويّ محبّب في جوّ حميم يفقد معه الشعور بالفواصل التي تفصله عن اللّه، بما تمثّله علاقة العبد بالسيِّد، أو علاقة المخلوق بخالقه؛ بل هو الجوّ الذي يحسّ فيه بالانفتاح والامتداد في أجواء المطلق. وتلك هي السعادة، كلّ السعادة، والروحية الفياضة بالنور والعطر والحياة»[1].

فهو إذاً يمثّل في عمقه عبادة ويتضمّن في معناه خضوعاً وشعوراً بالفقر المطلق والحاجة الكبيرة إلى الله مما يجعل الداعي مشدوداً إلى الله

(١) جريدة بينات، العدد ٢٩٧.

بالحبّ والإيمان والإخلاص من موقع الطهارة الروحيّة والانفتاح الفعليّ على الله، لهذا كانت الاستجابة أمراً طبيعياً فيما يرحم الله به عباده ويتقبّله من عبادتهم الخالصة.

ونحن هنا لسنا في صدد شرح مضامين الأدعية وأهميّتها بقدر ما سنسلّط الضوء على ما صحّ من هذه الأدعية وما أُدخل على الإسلام منها، وما ثبت من هذه الأدعية: أدعية الصحيفة السجادية، دعاء السحر المعروف بأبي حمزة الثمالي، دعاء كميل بن زياد للإمام عليّ عليه السلام، دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام وغيرها.

أمّا ما لم يثبت عن أئمّتنا عليهم السلام وإن كنّا لا نمانع من قراءة بعضه، لكن أن يصبح طقساً يُحافظ عليه، وتُترك الأدعية الثابتة، فهذا من غرائب هذا الزمن.

التوسل والدعاء

التوسّل إلى الله تعالى والدعاء هو من ثوابت الدين وأساس العقيدة واليقين، وقد مثَّل الدعاء مخّ العبادة وروحها، فلا بدّ أن تكون مفردات الدعاء والتوسّل مناسبة لمقام الربوبيّة، لائقة بجلاله وعظمته، مناسبة لمعاني الخضوع والابتهال، تحاكي التوحيد وتبتعد عن الطلب من الشريك، لتُغني الروح وتسمو بها النفس وتزكو، فترتفع إلى الدرجات وتصعد سلّم الكمال الإنساني، ونحن هنا لسنا بصدد بيان معاني الدعاء والخضوع والتوسّل، بل بصدد بيان كيفية التوسّل التي وقع فيها الخلط والشبهة، فأصل التوسّل من ديننا، لكن وقع الخلاف في كيفيّته، وهكذا مسألة الدعاء الذي يمثّل في عمقه عبادة، ويتضمّن خضوعاً وشعوراً بالفقر المطلق أمام الله، والحاجة الكبيرة بالحب والإيمان والإخلاص وموقع الطهارة الروحية والانفتاح الفعليّ على الله، لهذا كانت الاستجابة أمراً طبيعياً في ما يرحم الله به عباده ويتقبّلهم من عبادته الخالصة: لأنّ الإخلاص شرطٌ أساسي في قبول العبادة. وللبحث جهتان، التمييز بين الأدعية الصحيحة وغيرها مع ذكر نماذج، وكيفية التوسّل.

نماذج لفظية زحفت إلى أدعيتنا

وهناك القول المشهور ـ يا علي مدد ـ مأخوذ من الترانيم الصوفية:

مدد مدد يا رسول الله.. مع العلم أنّ المدد لا يكون إلا من الله عزّ وجلّ

وإذا أردنا أن تكون الكلمة صحيحة تقول: يا الله مدّنا بعليّ مثلاً..

ومنها دعاء التوسّل، أصلة مأخوذ من رواية الأعمى المشهور عند السنة ومفادها أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّمه أن يسبغ وضوءه ويصلّي ركعتين ويقول اللهم إنّي توجّهت إليك بنبيّك نبيّ الرحمة أن تفعل بي كذا وكذا... وأظنّ أنّ الراوي زاد عليها يا محمد يا رسول الله اشفع عند الله.. فالعبارة الثانية طلب من النبي والأولى من الله، وموضوعها مختلف تماماً، وكما ترى أُخذت هذه العبارة وزيدت للأئمة عليهم السلام فنتج عنها دعاء التوسّل.

وهكذا قول القائل وخصوصاً عند النساء ـ «ست زينب تشفيك أو أم البنين تقضيلك حاجتك أو ما شابهها تجد مثيلاً لها عند النصارى يا مريم يا أم الله اشفني أو قول نسائهم وأنا سمعت ذلك منهم شخصياً في قريتي ـ العذرا (العذراء) تشفيك.. العذرا تحميك.. وما إلى ذلك..

أيّها القارئ الكريم، أنا لا أريد أن أطيل بقدر ما أريد أن أعطيك نموذجاً لأنّ ما نستعمله من ألفاظ زحفت حتى إلى الأدعية، وكلمات تشبه كلام المشركين أوصلنا إلى محاولة إدخال ما هو غريب ومخرّب للعقيدة والدين، كلّ ذلك تحت عنوان أنّ لهم كرامة عند ربّهم، وهذا ممّا لا شكّ ولا ريب فيه، حيث كراماتهم واضحة ومنزلتهم لا ترقى إليها منزلة، ودرجتهم فوق درجة المخلوقين وتحت درجة الخالق، ومع ذلك لا بدّ أن نقتصر على ما ورد عنهم من الصحيح وما وافق القرآن.

الأول: التمييز بين الأدعية الصحيحة وغيرها

البحث حول الأدعية يقع في عدّة جهات: أسانيدها ومعانيها، ولن نخوض في الثاني والأول، نشير إلى بعضه، أما القدرة على التمييز بينها فالمتابع لأدعية الأئمة عليهم السلام في الصحيفة السجّادية ودعاء كميل ودعاء

السَّحر (أبي حمزة الثمالي) ودعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام وغيرها ممّا صحّ من الأدعية يلحظ دقّة المعاني وسَبْك العبارات وترابطها مع بعضها ورقيّ كلماتها وخلوصها من الشرك وصفاء توحيدها، بحيث لو قارنّا بينها وبين غيرها لميّزناها وإليك مثالاً في المقام:

في دعاء الفرج عبارة: «يا محمّد يا علي اكفياني فإنّكما كافيانِ، وانصراني فإنّكما ناصران»، بينما في دعاء طلب الحاجة للإمام زين العابدين عليه السلام: «**فرأيت أنّ طلبَ المحتاجِ إلى المحتاج سَفَهٌ من رأيه وضلّة في عقله... فكم قد رأيت يا إلهي من أناس طلبوا العزّ بغيرك فذَلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتّضعوا..**».

لاحظ أيّها العزيز بين الفقرة الأولى التي تخاطب المخلوق والثانية التي تخاطب الخالق، الأولى التي تطلب من الداني مهما علا شأنه، والثانية التي تطلب من العالي في علوّه عزّ وجلّ، وهكذا سبك العبائر، وجميل الصياغة، ولو شئنا تأليف مجلّدات حول العبائرة لأمكننا ذلك، ولكن أحببت أن أعطي مثالاً فقط.

نبذة عن الأدعية التي لم تثبت

الشيء الذي يؤسف له في هذا الزمن أن تصبح بعض الأدعية ـ ممّا لم يثبُت ـ طقساً يُحافَظ عليه، ويُترك الثّابت من أدعية الأئمة عليهم السلام، ويُدافَع عنه، ولو تكلّم عالِمٌ حول هذا الدّعاء أو ذاك، منتقداً أسلوبه، أو بعض عبائره المنافية لصفاء التوحيد، قامت قيامة البعض ضدّه وكأنّ الحفاظ على المنكر والأمر به أصبح من المعروف، والمعروف والنهي عن المنكر أصبح منكراً يُواجَه، ولكي لا أطيل، أبدأ بعرض بعض الخلل في بعض الأدعية:

الأول: دعاء التوسّل

هذا الدعاء تنطلق المناقشة فيه من جهتين: من جهة السند ومن جهة الدلالة.

أما السند أي الرواة الذين رووا هذا الدعاء، فهو في غاية الضعف وهو ليس ثابتاً عن أهل البيت عليهم السلام، وقد أثبت ذلك كثير من العلماء، ومنهم سيدنا الأستاذ السيّد فضل الله رحمه الله ورواه العلاّمة المجلسي عن بعض الكتب: روى محمد بن بابويه، هذا التوسل عن الأئمة عليهم السلام فمن الذي رواه ومَن هم هؤلاء وعن أيِّ إمام روي، فالأمر في غاية الإبهام، وليس فيه أيّ حلقة اتصال مع الأئمة عليهم السلام، ومثل هذا السند لا يُؤخذ به عند أهل الاختصاص.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية:

أ ـ لو سلّمنا جدلاً أنّه مرويّ عن آخر إمام، وهو الحجة بن الحسن عليه السلام فنحن نفهم أن يتوسّل بآبائه، لكن أن يتوجه إلى نفسه ويتوسّل بها حيث يقول عن نفسه: (يا حجة ابن الحسن يا حجة الله على خلقه إنّا توجهنا..) فهذا ممّا لا يعقل وخلاف أدبهم صلوات الله عليهم.

ب ـ لماذا التّركيز عليه ليلة الأربعاء؟ ومن أين جاء هذا النص؟ وأين هو هذا؟ مع العلم أنّ هذا الوقت ليس من الأوقات الوارد الاهتمام بها كليلة الجمعة ونهارها، وأوقات الفجر وما إلى ذلك.

ج ـ لسان هذا الدعاء يختلف عما علّمنا إياه أهل البيت عليهم السلام، حيث التّوجّه فيه في طلب الحاجة أو الشفاعة إلى نفس الإمام (يا وجيهاً عند الله اشفع لي عند الله) بينما المعروف عن الأئمة عليهم السلام خلاف ذلك وإليك بعض الشواهد:

١ ـ في دعاء يوم الخميس: **واجعل توسّلي به شافعاً يوم القيامة نافعاً**: فيتوجّه الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الله بالتوسّل برسول الله ولم يتوجّه إلى رسول الله مباشرة، ومعنى ذلك أن نطلب من الله أن يشفّعهم بنا لا أن نطلب منهم مباشرة.

وفي دعاء الأربعاء: يتوجّه إلى الله بطلب الشفاعة لا إلى نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عليه السلام: **وارزقني شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا تحرمني صحبته...**

وإذا لاحظنا الصحيفة السّجادية ودعاء كميل ودعاء عَرَفة ودعاء السحر هذا الإرث العظيم في التوسّل والابتهال لا نجد فيه أيّ توجّه لأيّ عظيم، بل التوجّه فيها كلّها إلى الله عزّ وجلّ والطلب منه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبأهل بيته عليهم السلام.

وفي دعاء طلب الحاجات: «**اللهم إني أسألك بك وبمحمد وآله أن لا تردّني خائباً**.. وفي دعاء آخر: «**اللهم إنّي أسألك بالمحمدية الرفيعة والعلوية البيضاء**»...ألخ

لاحظ أيها العزيز كيف يطلب من الله بهم لا منهم، فتأمّل!

هذا ما علّمنا إياه الأئمة عليهم السلام أن نتوجّه إلى الله تعالى لا إليهم، وعلّمونا أنّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهذا هو منهج القرآن، وهم حَمَلة القرآن، والقرآن النّاطق، فلا يقولون إلا ما وافق الكتاب، حيث أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وكثير من الآيات توجّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول كذلك، إنّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، ولا يعلم الغيب ولا يدري ما يُفعل به، وهذا ما يظهر من توجّه إبراهيم عليه السلام لله تعالى أن يُطعمه ويسقيه ويشفيه، ﴿**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾[الشعراء: ٧٩-٨٠] ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**﴾[الأعراف: ١٨٨] وقوله

تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾[الأنعام: ٥٠] إلى غيرها من الآيات التي توحي وتؤكّد أنّهم يلجؤون إلى الله تعالى بحوائجهم وتوسّلاتهم وفي كلّ أمورهم، سواء كانت صغيرة أم كبيرة فإنّهم يطلبونها من الله تعالى.

د ـ وهناك ملاحظة أخيرة وهي أنّ مَن لا يملك لنفسه النفع والضرّ كيف ينفع ويضرُّ غيره؟ ومَن يحتاج إلى الله تعالى برشّة ملح أو نقطة ماء، كيف يعطيها لغيره؟ وأمّا ادعاء أنّهم يفعلون ذلك بإذن الله فممّا لم يثبت بأيِّ دليل، بل الأدلّة على خلافه. وهذا القرآن بين يديك حيث إنّ الله تعالى ينسب فيه كلّ الأمور إليه من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإنزال الماء من السماء وكلّ شؤون الخلق التي لا تُحصى ولا تُعدّ. مع ملاحظة أنّهم عليهم السلام إذا دعوا الله لهم أو لنا أعطاهم الله ذلك، وهذا من باب استجابة الدعاء، وفرق بين الأمرين.

التوسّل في روايات أهل البيت عليهم السلام

بعد أن أثبتنا أنّ التوسّل من ديننا كان الخلاف على كيفيّته، وهي أن تطلب من الله بهم، لا أن تطلب منهم، فنحن مع الاتجاه الأول والاتجاه الثاني غير صحيح، ولذا جاءت الروايات لتؤكد المعنى الأول.

ورد في باب الاعتكاف ج ٤ الوسائل: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام علّم رجلاً كيفية التوسّل فقال: «**قل: اللهمّ إنّي أتوجّه إليك بنبيّك نبي الرحمة محمد وأهل بيته الذين اخترتهم على علم على العالمين، اللهمّ فذلّل لي صعوبتها واكفني شرّها فإنّك الكافي المعافي**».

بالله عليكم هل سمعتم أرقى من توسّل بالله تعالى كهذا بحيث يطلب

منه سبحانه بنبيّه وأهل بيته؟ أليس هذا أصحّ وأوفق لصفاء التوحيد من أن تطلب من نفس النبيّ أو الإمام؟ وهل يوجد أوضح دلالة من هذه الرواية على كيفية التوسل بالله وتقديمه على النبي وأهل بيته، لا تقديمهم والخطاب إليهم.

إنّ الفارق بسيط جداً، ولكنّه يغيّر المعنى، أيّ فبدل أن تقول: يا محمد اشفع لي قل: يا رب اجعله شفيعي، وبدل أن تقول يا عليّ ارزقني ويا فاطمة أغيثيني، قل يا الله ارزقني بعليّ ويا ربّ أغثني بفاطمة، لتخرج عن حدود الشرك الخفيّ حتى لو لم تقصده في المقام، وإنّ طلب الشفاعة من المعصوم لا يُقصد به الشرك عادة، ولكن ليس فيه أدب مع مقام الربوبية فتدبّر، وخلاف طريقة الأئمة عليهم السلام.

وفي فقة الرضا عليه السلام لابن بابويه ص ٩٧ يقول بين الأذان والإقامة: «**اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صلِّ على محمد وآل محمد وأعطِ محمداً يوم القيامة سؤله آمين رب العالمين. اللهمّ إنّي أتوجّه إليك بنبي الرحمة محمد** صلى الله عليه وآله وسلم (وهنا موضع الشاهد كيف توجّه إلى الله بطلب حاجته) **وأقدّمهم بين يديّ حوائجي فصلِّ عليهم واجعلني بهم وجيهاً في الدنيا والآخرة** (وهذه الفقرة خلاف فقرات دعاء التوسل) **ومن المقرّبين واجعل صلواتي بهم مقبولة ودعائي مستجاباً**».

مستدرك الوسائل باب الدعاء بين الأذان والإقامة

وورد أنّ رجلاً من الصّحابة قال: استغيثوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رجل منافق دخل المدينة فسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «**ألا إنّه لا يستغاث بي وإنّما يستغاث بالله عز وجلّ**» رواه الطبري ربما يُشكل على سند الرواية، ولكن مضمونها موافق للكتاب.

ـ وفي وصية الإمام علي عليه السلام لولده عليه السلام:

«اعلم أنّ الذي بيده خزائن ملكوت الدنيا والآخرة قد أذن لدعائك وتكفّل الإجابة.. ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك ولم يُلجئك إلى مَن يشفع لك إليه.. ثم في يدك مفاتيح خزائنه بما أَذِن فيه من مسألته».

وهناك روايات وأدعية كثيرة تؤكّد هذا المعنى في التوسّل وهو الطلب من الله تعالى والتوجّه إليه دون سواه، وأنّ الله تعالى قال: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[غافر: ٦٠] ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦]، فلم يوسط أحداً بينه وبين عبده وإن كنّا نوسّط النبي وأهل بيته لنضمن الإجابة.

فقد ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**أنّ الله تعالى ما شاء أن يستجيب دعوة ويردّ أخرى فإذا قدّمت الصلاة على محمد وعلى آل محمد على دعائك استُجيب، لأنّ الله لا يردّ واحدة ويقبل الأخرى..**»

ومن هنا يظهر فساد ما ذهبوا إليه في هذا الزمن، وهو مأخوذ عمّن أدخل في الدين هذه البدع والترّهات، وأصولها معروفة عند أرباب الغلو.

وقد يرى البعض أنّه ليس لدى العبد أهلية الطلب من الله مباشرة، ولا بدّ أن نطلب من الأئمّة وهم يطلبون لنا، وهذا مخالف لما قدّمنا من الآية والروايات، وادّعى هؤلاء أنّ في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[المائدة: ٣٥] دليلاً على مدّعاهم، ولكنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ الآية الكريمة في مقام بيان سلوك الطريق الموصل إلى الله عزّ وجلّ، وأعظم الطرق الموصلة إليه هو النبي وأهل بيته عليهم السلام والقرآن، فكلّ هؤلاء وسائل للوصول إلى معرفة الله عزّ وجلّ، ولا دخل لها في التوسّل، ومع ذلك لو أخذنا هذا المعنى فإنّنا نتوسّل، ولكن كما علّمنا الأئمة، وأشرنا إليه في أن نطلب من الله بهم لا أن نطلب إليهم.

ـ وقد ذهبوا في مدّعاهم أنّ أخوة يوسف طلبوا الاستغفار من أبيهم يعقوب عليه السلام ﴿**قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[يوسف: ٩٧-٩٨]، فإنّ هذا من قبيل طلب الدعاء من أخيك المؤمن كما لا يخفى، فدور يعقوب هو الدعاء لهم إلى الله ليغفر لهم، لا أن يستغفر لهم هو.

وهكذا في قضية قميص يوسف عندما أُلقيَ على وجه أبيه يعقوب عليه السلام فارتدّ بصيراً ﴿**فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً**﴾[يوسف: ٩٦] لا أنّ التأثير الفعليّ للقميص الذي وصل منه الشفاء، بل وقّت الله تعالى الشفاء أثناء إلقاء القميص على وجهه، فالمؤثّر فعلاً هو الله، وليس للقميص أيُّ دور في المقام، وهكذا خطاب الله تعالى لنبيّه: ﴿**أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ**﴾[المنافقون: ٦]، فإنّ ذلك يرجع إلى الدعاء لهم بالمغفرة، وهذا على وزن طلب الدعاء من أخٍ لك في ظهر الغيب، وهو بعيد عن موردنا تماماً، إذ إنّ مورد الحديث هو طلب الشفاعة منهم، أو قضاء الحوائج فلا صلة للموضوع بهذا حتى يُستند إلى أمثال هذه الأمور.

وما استدلّوا به من قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[التوبة: ٧٤]، فالغنى هنا هو غنى الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحكم المدينة، فاستتبّ الأمن وتحرّكت عجلة الاقتصاد من زوّارها بفضل وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها، فهو خطاب للمنافقين الذين يريدون المكر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليشكروه بدل أن يمكروا به، فليس معناها أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يرزقهم من فضله كما فهم السُّذَّج في هذا المجال. وأيّ دليل آخر يمكن أن يُتصوّر فهو على هذا الوزن. وأوضح دليل على ردّ ما ذهبوا إليه من عدم جعل الوسطاء بين الله وبين أحد، أنّ الله دعانا إلى دعائه من دون أن نوسّط أحداً، ومَنْ أصدق من الله، هم أم روايات الوضّاعين؟ قال تعالى في سورة غافر آية ٦٠: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ وقال

في سورة البقرة آية١٨٦: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

نماذج من الأدعية المخالفة في بعض فقراتها للقرآن والسُّنّة

*** دعاء الفرج:**

فضلاً عن عدم ثبوته حيث قال عنه الإمام الخالصي في كتابه علماء الشيعة إنه من وضع الشيخية وأصله رؤيا، فهناك عبارة فيه تخالِف العقيدة، ومؤدّاها شرك بالله العظيم وهي: (يا محمد يا علي اكفياني فإنّكما كافيانِ وانصراني فإنّكما ناصران) والكافي في عقيدة النبي والقرآن وأهل البيت هو الله عزّ وجلّ، والناصر هو الله عزّ وجلّ ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**﴾[آل عمران: ١٦٠] والكافي هو الله تعالى قال في سورة الزمر ٣٦: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾.

﴿**ولا يجد له مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً**﴾[النساء: ١٢٣].

*** دعاء الأذواد:**

بعض فقراته فيها شرك بالله عز وجلّ.. ثامن فقرة تقول عن الأئمة عليهم السلام: (لا فرق بينك وبينهم إلا أنّهم عبادك) وهي من وضع الشيخيّة الذين اعتبروا الأئمّة آلهة الأرض، كما أنّ الله هو إله السماء وهي الفكرة المسيحية نفسها في تجسيد الإله بعيسى عليه السلام وأسقطوا هذا المعنى على قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾[الزخرف: ٨٤] فقالوا عن الله بأنّه إله السماء، وعليّ إلهُ الأرض والعياذ بالله، وقد نقل هذا الإمام الخالصي في كتابه علماء الشيعة عن الشيخية.

*** دعاء العديلة:**

المُزاد عليه فقرات كثيرة والتي منها مخالف للقرآن وفيه شرك بالله عزّ وجل فيه فقرة تقول: بعد الحديث عن الحُجّة عليه السلام: (المرجى الذي ببقائه بقيت الدنيا وبيمينه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء...). وقد ذكر السيد الأستاذ السيّد فضل الله رحمه الله أنّ هذه الفقرات تنافي صفاء العقيدة، فالثابت أنّ الله تعالى يُمسك السماء أن تقع على الأرض كما ذُكر بالقرآن في سورة فاطر آية ٤١: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ وقال تعالى في الذاريات آية ٥٨: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾، ولو قلنا بيمنه لا بيمينه فهو على وزان ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾[الأنفال: ٣٣] فوجود الإمام عليه السلام رحمة إلهية وبركة للناس لا أنّهم وسائط في الفيض كما سنتحدّث عن ذلك.

وقد نقل القمي عن الميرزا النوري أنّ هذا الدعاء من مؤلفات بعض أهل العلم، وليس بمأثور، وغاية ما ورد عن بعض العلماء القول عند الاحتضار: «اللهم أرحم الراحمين إنّي أودعتك يقيني هذا وثبات ديني وأنت خير مستودع وقد أمرتنا بحفظ الودائع فردّه عليّ وقت حضور موتي»، وعلى هذا المعنى أي خوف العديلة عند الموت، أُلِّف هذا الدعاء وما أكثر ما أُلِّف من أدعية وزيارات وزيد على زيارات أخرى تُبحث مستقلّة.

*** دعاء الندبة:**

ذكره في مصباح الزائر السيد ابن طاووس، قال ذكره بعض أصحابنا قال: قال محمد بن علي بن أبي قرّة نقلت من كتاب محمد بن الحسين بن سفيان البزوفري دعاء الندبة وذكر أنّه لصاحب العصر والزمان وفي البحار السند نفسه تقريباً ـ وعليه الحديث حول السند ظاهر، لأنّه لا يُعْلَم ناقله

ونسبته إلى الإمام المهدي عليه السلام لا يُعْلَم له طريق، والكلام فيه كالكلام في دعاء التوسّل من ناحية السند ـ وإن كنّا لا نمانع من قراءته لعدم وجود فقرات منافية للتوحيد فيه، ولأنّ الإجماع بين العلماء قائم على جواز أن يدعو الإنسان بلسانه أو يخترع دعاء من عنده، المهم أن يكون موافقاً للتوحيد ولمضامين الشريعة ومؤدباً بحضرة ربّه سبحانه وتعالى وهذا لا إشكال فيه، ولكن الإشكال كما قدّمنا في السند وفي نسبته إلى الإمام الحجة عليه السلام، فلو نُسب إلى صاحبه وكاتبه لم يعد لدينا مشكلة، ولكن أن نخترع دعاء وننسبه إلى الأئمة فهذا محلّ إشكال.

وثالثاً: لو قارنّا فقرات هذا الدعاء لوجدناه يختلف اختلافاً كبيراً عن عبارات الأدعية الثابتة، وهو عبارة عن قسمين: قسم يشتمل على الأحاديث، وقسم ندب وعزاء، وهذا يختلف عن لسان الأئمة عليهم السلام في الدعاء. وإذا قارنا هذا الدعاء لعرفنا انه من تأليف غير الأئمة لأنّه يتحدّث مع الإمام مع وجود بون شاسع بين فقراته وفقرات الأدعية الثابتة.

*** دعاء العهد:**

الذي يُناقش به من حيث السند والمتن ولعلّه كما قال سيدنا الأستاذ المرجع فضل الله رضي الله عنه إنّه من كتابة أحد العلماء لأنّه يشتمل على بعض الكلمات الأدبية.

وأخيراً: وأما مثل دعاء الجوشن والمجير فلا بدّ من المحافظة على الدعاء بهما، والتوسّل بهما إلى الله، لعظيم المعاني فيهما، واشتمالهما على مدح الخالق وصفاته والاستجارة به، وإن لم يُقطع بهما من حيث السند.

وكذلك لا بأس بدعاء السِّمات، ولم أذكر بقية الأدعية لأنَّ في الصحيفة

السجادية وما ذكرنا من دعاء كميل وعرفة والسحر وغيرها غنى كبيراً، وكفاية عن أمثال أدعية مكتوبة على هوى أصحابها، تحوّلت إلى دين وطقوس يحافَظ عليها، وبدل أن نحافظ مثلاً على دعاء التوسّل ليلة الأربعاء، لمَ لا نحافظ على دعاء مكارم الأخلاق الذي يربّي الفرد المؤمن على الأخلاق الفاضلة والعلاقة مع ربّه والناس من حوله وكيفية طلب الحوائج والتجاوز عن الناس والابتهال مقرون ذلك كلّه بالصلاة على محمد وعلى آل محمد.

أيّها القارئ العزيز، يجب أن نتعلّم من سيرة أهل البيت عليهم السلام كيف أبعدونا عن كلِّ ما فيه شائبة الشرك حتى أنّهم عليهم السلام رفضوا أن يكون في اللفظ غير المقصود من صاحبه، ولذا ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[يوسف: ١٠٦] عن الباقر عليه السلام منها «**قول الرجل وحياتك**» ـ وما أكثر ما نستعمل هذه الكلمة في زماننا ـ والحياة إنّما هي لله عزّ وجل لأنّ من صفاته (الحيّ)، ونحن معدومون، فلا نشترك معه في صفة الحياة الأبدية السرمديّة، لأنّ الإنسان يطرأ عليه العدم، ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً**﴾[الإنسان: ١] ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[يوسف: ١٠٦]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية بالمصداق ـ «**منها قول الرجل توكّلت عليك وعلى الله**» ـ وهو من التعابير المستعملة كثيراً، فهو شرك في اللّفظ، وإن لم يقصد صاحبه، لأنّ التوكل إنّما يكون على الله وحده، فيسأله السائل ماذا أقول يا بن رسول الله عليه السلام؟ يقول: «**قُل توكّلت على الله وحده وأسأله أن يهيّئ الأمر على يديك**». وجاء في الحديث عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «**هو قول الرجل لولا فلان لهلكت، لولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه جعل شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه قال قلت فيقول: لولا أنَّ الله منّ عليّ بفلان**

لهلكت؟ قال نعم لا بأس بهذا»[1].

فإذا كان الأئمة عليهم السلام يريدون أن يبعدونا عن مثل هذه الألفاظ التي ربّما لا يحاسب عليها الله تعالى لعدم قصدها للمتكلّم، فكيف يطلب الرزق والحاجة وما إلى ذلك منهم، وهم الذين يدعون دبر كلّ عصر من الصلاة: «**لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً**».

ورد عن الأمير عليه السلام في نهج البلاغة: «**إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللّه سبحانه الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقامة الصّلاة فإنّها الملّة، وإيتاء الزّكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّةٌ من العقاب، وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذّنب. وصلة الرّحم، فإنّها مثراة في المال، ومنسأة في الأجل. وصدقة السّرّ فإنّها تكفّر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السّوء. وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان**». فكلّ هذه طرق ووسائل إلى الله عزّ وجلّ.

(١) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ١١، ص ٢٨١.

باب استحباب الزيارة

ثبت في استحباب زيارة الحسين عليه السلام أن يقول الزائر: «**السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك وأناخت برحلك، عليك منيّ سلام الله أبداً ما بقيتُ وبقي الليل والنهار، ولا جعله الله آخر العهد منّي لزيارتكم، السلام على الحسين، وعلى علي بن الحسين، وعلى أولاد الحسين، وعلى أصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام ورحمة الله وبركاته**».

أو يقول: **السلام عليك يا مولاي يا أبا عبد الله**.. فقط.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ سلّم عليّ في شيء من الأرض أُبْلِغْتُه**» وفي حديث آخر: «**من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة**»[1].

هذا مضافاً إلى أنّه وردت زيارات في حقّ كلّ إمام على حدة، ولا إشكال في ذلك، مع ملاحظة زيارة المقابر العادية، وزيارة أموات المؤمنين للسلام عليهم وللعظة والتذكّر، فكيف بزيارة المعصومين عليهم السلام الذين نستوحي وجودهم ونذكر تواريخهم ونستحضر نهجهم عند زيارتهم ونتعبأ روحيّاً في الوفود عليهم أحياءً وأمواتاً صلوات الله عليهم أجمعين.

فقد ورد في الحديث عن علي عليه السلام: «**زوروا موتاكم فإنّهم يفرحون**

(١) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج١٤ ص٣٣٨.

لزيارتكم وليطلب الرجل حاجته عند قبر أبيه وأمّه بعدما يدعو لهما»[1].

هذا إضافة إلى زيارة القبور الواردة في محلِّها والقول: **السلام على أهل لا إله إلا الله من أهل لا إله إلا الله**[2].

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أيّامه وفي مرضه حيث صعد إلى البقيع كما يروي كتّاب السيرة متّكئاً على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب عليه السلام ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أُمرتُ أن أستغفر لأهل البقيع وقال السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، ثم استغفر لهم طويلاً**»[3].

فَفِعْله صلى الله عليه وآله وسلم دليل على جواز زيارة القبور والدعاء عندها، خلافاً لما يعتبره البعض من المسلمين بدعة يجب الاجتناب عنها، أو يُدخلها تحت دائرة الشرك وما إلى ذلك من وقوف على حرفية النص وجمود على فكر متخلّف لا يعيش الانفتاح على الله وعلى النصوص في أبعادها الروحية والاجتماعية ممّا يجعل هؤلاء ضيّقي الأفق ومنفِّرين للناس عن الدعوة إلى الله.

كما ورد أنّ عليّاً عليه السلام حينما وصل إلى جبانة الكوفة عند عودته من حرب صفين، توجّه إلى القبور ونادى الأموات قائلاً: «**يا أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة والقبور المظلمة! يا أهل التربة! ياأهل الغربة يا أهل الوحدة يا أهل الوحشة أنتم لنا فرط سابق ونحن لكم تبع لاحق! أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم**»؟[4].

---

(١) المصدر السابق، ج١٠ ص٢٦١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ج٣ ص٢٢٣.
(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ج٩٥ ص٣٠٠.
(٤) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١ ص٢٥٣.

هذا مع ملاحظة عظيمة لقوله تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾[النور: ٣٦] ولما قرأ رسول الله هذه الآية قام إليه رجل فقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها (يعني بيت علي وفاطمة) فقال ﷺ: «**نعم من أفاضلها**»[1].

فزيارة مقامات الأئمة عليهم السلام هي من زيارة بيوت الله التي يذكر فيها اسمه ويرفع الابتهال إليه والطب منه سبحانه بمكانة صاحب هذا الضريح أو المقام.

زيارة وارث:

ذكر زيارة وارث الشيخ الطوسي في كتابه (مصباح المتهجّد)، حيث قال: روى لنا جماعة عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن قضاعة بن صفوان بن مهران الجمال عن أبيه عن جدّه صفوان: «**السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ آدَمَ صَفوةِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ نُوحٍ نَبِيِّ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ إبراهيمَ خَليلِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ موسى كَليمِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ عيسى رُوحِ الله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ مُحَمّدٍ حَبيبِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ أميرِ المُؤمِنينَ وَلَيِّ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا ابن مُحَمّدٍ المُصطَفى، السَّلامُ عَلَيْكَ يَابن عَليّ المرتضى، السَّلامُ عَلَيْكَ يَابن فاطمة الزهراء، السَّلامُ عَلَيْكَ يا ابن خَديجَةَ الكُبرى، السَّلام عَلَيْكَ يا ثارَ اللهِ وابنَ ثارِهِ، والوِترَ المَوتورَ، أشهَدُ أنَّكَ قَد أقَمتَ الصَّلاةَ وَآتَيتَ الزَّكاة وَأمَرتَ بالمعروفِ وَنَهَيتَ عَنِ المُنكرِ، وَأطَعتَ اللهَ وَرَسولَهُ حَتّى أتاكَ اليَقينُ، فَلَعَنَ اللهُ أُمَةً قَتَلَتكَ وَلَعَنَ اللهُ أُمَةً ظَلَمَتكَ، وَلَعَنَ اللهُ أُمَةً سَمِعت بِذلك فَرَضِيَت**

(١) الحسكاني، شواهد التنزيل، ج١ ص٤١٠.

بـه، يا مَولاي يا أبا عَبدِ اللهِ، أشهَدُ أَنّك كُنتَ نوُراً في الأصلابِ الشّامِخَةِ وَالأرحـامِ المُطَهَّرَةِ، لم تـُنَجِّسـكَ الجـاهِليَّةُ بـأنجـاسِـها، وَلَـم تـُلبِسكَ مِن مُدلَهِمّاتِ ثـِيابـِها، وَأشـهَدُ أنّكَ مِن دَعائِمِ الدّين وَأركانِ المُؤمِنينَ، وَأشهَدُ أنّكَ الإمـامُ البَرُّ التَّقـيُ الرَّضـيُ الزَّكيّ الهادِي المَهدِيّ، وَأشـهَدُ أنَّ الأئمة مِن وُلْدِكَ كَلِمةُ التَّقـوى وَأعـلامُ الهُدى وَالعـُروةُ الوُثـقى وَالحـُجَّةُ عـلى أهل الدُنيـا، وَأُشـهِدُ اللهَ وَمـلائكَتـَهُ وَأنبِياءهُ وَرُسُـلَهُ أنّي بِكـُم مُؤمِنٌ وَبـإِيابِـكم مُوقنٌ بـشَرائِع ديني وخواتِيم عَمَلي وقَلبي لِقَلبِكم سِلمٌ وَأمري لِأمْركـُمُ مُتَّبـع صـَلَوات الله عَلَيكم وَعَلى أرواحِـكم وَعَلى أجـسـادِكُم وعـَلَى أجـسـامِكُم وَعـلى شـاهِدِكم وَعـَلَى غـائِبـِكم وَعـَلَى ظـاهركم وعـلى بــاطـِنِـكـم، بأبـي أَنـت وَأمي يَا ابْن رَسـُولِ اللهِ، بأبي أنتَ وَأمّي يا أبـا عـبـدِ اللهِ، لَقَد عَظُمتِ الرَّزيَّةُ، وجَلّتِ المُصـيبـَةُ بِـكَ عَلَينا وَعَلى جـَمـيعِ أهل السَّمـواتِ والأرض، فـلَعَنَ اللهُ أمـةً أَسرجَت وَألجمـَتْ وَتـَهَيَّأت وتنـقّبـت لِقِـتالك، يا مـَولايَ يا أبـا عـَبـدِ اللهِ قـَصـَدتُ زيارتك أسألُ اللهَ بـالِشـأن الذَي لَكَ عِندَهُ، وَبـِالمَحَل الَّذي لَكَ لَديهِ، أن يُصـَلّيَ عَلَى مُحـَمّدٍ وَآلِ مُحـَمّدٍ، وَأن يَجعَلَني مَعَكم في الدُنيا وَالآخـِرة»[١].

لا إشكال عندنا في قراءة زيارة وارث والمواظبة عليها بغضّ النظر عن صحّة سندها الذي لم يثبت بوجه معتبر، لكن مضامينها جيّدة وعالية. فالإمام الحسين عليه السلام هو وارث الأنبياء المذكورين فيها لأنّ رسالتهم جُمعت في رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وزيادة وهو القائل: «**إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[٢] فقد كانت رسالته صلى الله عليه وآله وسلم متمِّمة لكلِّ الرسالات وزيادة فيها من القوانين التي تحتاجها الأمم إلى يوم القيامة ومن الأخلاقيات والسلوكيات والتشريعات ما يستغني به الناس عبر الأزمان وهو وارث محمد صلى الله عليه وآله وسلم باتفاق

(١) مصباح المتهجد، الطوسي، ص٧٢٣.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي، ج١٠-١٩٢.

كلّ المسلمين على أنه إمام قام أو قعد «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**»[1] فتلقائيّاً هو وارث وحامل هذه الرسالات ومبلِّغها ليس فقط بالكلمة، بل ترجمها ثورة بدمه الزكيّ، ليقول للعالم وللتاريخ والمستقبل إنّ الحسين سبط رسول الله قُتل ليُعيد الإسلام إلى أصالته، وليفجِّر في وجه كلِّ ظالم عبر التاريخ كلمة الحقّ المدويّة الرافضة للعبودية وللذلّ والخنوع وإعطاء الشرعية، وغير ذلك من دروسها العظيمة.

وهكذا في مضامينها الباقية لكن لا بدَّ من الوقوف عند مضمونين فيها ولا بدّ من دراستهما ومعرفة المقصود منهما:

الأول: أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهَّرة لم تنجِّسك الجاهلية بأنجاسها...

هل المقصود في هذه الفقرة أنَّ آباء الأنبياء كلّهم موحّدون وهكذا أمّهاتهم كما استفاد البعض من هذه الفقرة ذلك طبعاً على فرض الصِّحة نقول هذه الفقرة لا تدلّ على ذلك، فمجرّد كونه في الأصلاب الشامخة لا يعني توحيدها وما استدلَّ به على توحيد آباء الأنبياء غير تام، وأهمّه هذه الفقرة وهي كما ترى سنداً ومتناً.

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩] بعيد عن هذا المعنى كلّ البعد فليس معناه كما يقال إنّك كنت تتقلب في أصلاب الآباء الساجدين لله الموحّدين له، بل معناها أنَّ الله يراك حين تصلّي الجماعة مع المؤمنين وتتقلّب في السجود والجلوس مع الذين من خلفك فهي واردة في صلاة الجماعة.

نعم غاية ما ثبت أنّ آباء الأنبياء كلّهم كان زواجهم شرعيّاً، كما ورد عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام: حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير

(١) الإرشاد، المفيد، ج٢ ص٣٠.

سفاح، أما كونهم موحّدين فلا دليل عليه، أضف إلى أنَّ أمهات الأنبياء غير موحِّدات وهذا الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**ولدني أبو بكر مرّتين**»[1] باعتبار أنّ أم الإمام الصادق عليه السلام هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وأمّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعلوم أنّ أبا بكر قبل الإسلام سجد للصنم، بل أمّهات أبي بكر سجدوا للأصنام ومات بعضهم على الشرك، فهل يُقال إنّهن موحِّدات، فكلمة الأرحام المطهّرة تدلّ على ما ذكره الإمامان الباقران عليهما السلام من أنه بنكاح غير سفاح أي طاهري المولد و أريد أن أقول أكثر من ذلك وربما لم يقله أحد من قبل ما معنى أن يسمّي عبد المطلب أولاده أبو طالب، عبد مناف، وأبو لهب، عبد العزى وهكذا، وهل هذا يدلّ على كونه موحّداً ولا يعيش أدنى شيء من شبهة الشِّرك؟

ثم لسنا بحاجة أن نؤول القرآن الصريح في كلام إبراهيم عليه السلام لأبيه في أكثر من آية حتى نتمسّك بقولنا: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[الأنعام: ٧٤] ولم يقل لعمّه آزر ولو أنَّ العرب كانت تُطلق كلمة الأب على العم، لكنّه هنا لا حاجة لأن يؤكّد اسمه مع صفة الأبوّة وفي آيات أخرى: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾[مريم: ٤٢] ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾[الأنبياء: ٥٢] ﴿**إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[الممتحنة: ٤]. فتكرار تسميته بالأب يدلّ بوضوح على الأب النَّسَبيِّ وليس العم، وإلا لاختلف التعبير قليلاً عند تكرار القصة.

الحاصل أنّه لا دليل على أنّ آباء الأنبياء كلّهم كانوا موحّدين، بل الدليل ربما على عكس ذلك كما أشرنا، لكن نؤكّد على كونهم طاهري المولد لقول

(١) كشف الغمّة، الأربلي، ج٢ ص١٦١.

الإمام الباقر والصادق عليهما السلام: «**من نكاح غير سفاح**»[1] وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ* وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[الشعراء: ٢١٨-٢١٩] يتقلّب في أصلاب الأنبياء من صلب نبيّ إلى صلب نبيّ من نكاح غير سفاح من لدن آدم، والروايتان تؤكّدان تقلّبه في أصلاب الأنبياء ولم تتحدّث عن كلّ آبائه صلى الله عليه وآله أو كلّ آباء الأنبياء، فلو سلّمنا جدلاً بدلالة الآية وبغضّ النظر عن موردها الذي هو صلاة الجماعة، وأنّه كان موجوداً في الأصلاب، فالروايتان تحصران وجوده في أصلاب الأنبياء لا مطلق الآباء وتؤكّد على كون آبائه طاهري المولد، أي لا يوجد فيهم أبناء زنا كما أشار الحديث بنكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام، وعلى هذا المعنى نحمل فقرة الزيارة. وإذا وجد دليل آخر على المسألة غير هذه الأدلة يُؤخذ بها، وإلاّ فيُقتصر على طهارة المولد في آباء الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

الثاني: أنّي بكم مؤمن وبإيابكم موقن.

ما معنى الإياب؟ هل المقصود به رجعة الأئمة، وأنّهم يحكمون الأرض كما يُستفاد من بعض المرويّات، أم أنّ رجعتهم تعني رجعة الحقّ المتمثّل بقيام دولة العدل للحجّة المنتظر (عج)، كما ورد في جواب الرضا عليه السلام للمأمون عندما سأله عن الرجعة.

الذي يلاحظ أحاديث الرجعة، لا يمكن أن يطمئن بتفاصيلها خصوصاً أنَّ بعضها معارض للقرآن، فلو أثبتنا رجعة الأئمة عليهم السلام واحداً بعد الآخر ليحكم كلّ واحد منهم فترة من الزمن ويقتصّ من ظالميه حيث يحيي الله هؤلاء الظالمين كبعث يزيد مع الحسين عليه السلام والاقتصاص منه ومن جماعته وهكذا باقي الأئمة يأتي سؤال مهم ما الفائدة حينئذ من عقابهم يوم

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج١٥ ص١٢.

القيامة؟ أليس الاقتصاص مُسْقِطاً للعقوبة فتكرار العقاب خلاف العدل من جهة فتصبح الرجعة أمراً لغوياً مع ملاحظة أنّ الإيمان بهذا المعنى أو عدمه لا يُخرج الإنسان عن الدين، لأنّه ليس من الضروريات التي سنتحدّث عنها في مبحث آخر، ولكن المؤسف أنَّ كثيراً من أهل العلم لا يفرّق بين الضرورة والمسلم وبين الأمر التاريخي أو الفرعي وما إلى ذلك، فقد قال العلامة السيد محسن الأمين في كتابه (نقض الوشيعة): «الرجعة أمر نقليّ إن صحّ النقل به لزم اعتقاده وإلاّ فلا»[1].

كما أنّ العديد من العلماء أنكروها جملة وتفصيلاً كالشيخ محمد حسن شريعت والشيخ عبد الوهاب التنكابني[2] اللذين قالا إنّها مخالفة لظواهر القرآن قطعاً، ومنهم مَن جعلها من الضروريات كالسيد الكلبايكاني، ومنهم مَن قال بما قاله سيّدنا الأستاذ السيّد فضل الله ﷺ حيث ينقل الشيخ المفيد والشيخ الطبرسي عن بعض علمائنا السابقين أنّهم كانوا يقولون إنَّ الرجعة ليست رجعة أشخاص، وإنّما هي رجعة المُلك والسلطان[3]، أما المعنى الأول فلا نجد دليلاً عليه من الكتاب، وإذا غضضنا الطرف عن سند روايات الرجعة نرى أنّ الكتاب على خلاف هذا المعنى، لأنَّ الله تعالى وعد الظالمين بتعذيبهم يوم القيامة.

ثانياً: في ذلك إبطال للثواب والعقاب، فإذا رجع الإمام والمظلومون معه واقتصّوا من ظالميهم وقتلوهم بنفس الطريقة، فيقبح حينئذ أن يعذّبهم الله مرة أخرى على ذلك، لأنّهم أخذوا بحقّهم إلا الحق العام، فهذا أمر آخر ويبطل الثواب، فأيُّ ثواب للمظلوم حينئذ إذا أُخذ بظلامته من ظالمه، وعَلامَ يُثيبه الله يوم القيامة وكيف سيعذّب ظالمه على ظلم فعل المظلوم به مثله؟ إنّ هذه المسألة بعيدة عن العقل والمنطق، وظاهر القرآن كما

(١) نقض الوشيعة، محسن الأمين، ص٤٧٣.
(٢) الإسلام والرجعة، عبد الوهاب التنكابني، ص١٢.
(٣) مجمع البيان، الطبرسي، ج٤ ص٢٣٤.

يقول العلامة السيد هاشم معروف الحسني في كتابه (الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة): «أما رجعة الأموات قبل المحشر فليست من عقائدهم، ولا من ضروريات مذهبهم، مع العلم بوجود بعض المروّيات عن الأئمة فيها، ولكن الكثير منهم، يدّعون بأنّها من الموضوعات بين أحاديث أهل البيت. وأكثر الذين قالوا بصدورها عن الأئمة عليهم السلام التزموا بتأويلها وحملها على أقرب الاحتمالات التي لا تتنافى مع العقل بعد أن أعرضوا عن ظواهرها»[1].

الحاصل

صحيح أنّه لا يمكن ردّ كلّ روايات الرجعة، لأنّها كثيرة فتدلّ بمجملها حينئذ كما ذهب سيدنا الأستاذ السيّد فضل الله رحمه الله أعلى الله مقامه، إلى أنّ الرجعة معناها رجعة الحقّ المتمثّل في قيام دولة العدل التي سعى لها كلّ الأئمة عليهم السلام وقبلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أوضح أنّ: «الرّجعة ثابتة إجمالاً، ولكن لم يثبت كونها رجعة الأشخاص، بل المحتمل جداً كونها رجعة دولة الحقّ والعدل لأئمّة الهدى عليهم السلام»[2].

وهذا معنى (**بإيابكم موقن**) أي ليس لديّ شك في ظهور قائم آل محمد الذي «**سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما مُلئت ظلماً وجوراً**».

ونؤكد هنا أنّنا لا نبغي بذلك نفي الزيارة كما يتوهّم البعض، أو قد يستغلّ ذلك المغرضون، بل نصحّح المعتقد فيها على منهج الحقّ منهج أهل البيت عليهم السلام ولا إشكال في استحباب زيارة الإمام الحسين وكلّ الأئمة عليهم السلام.

وأمّا ما استدلّوا به على الرجعة من الآيات وعمدتها قوله الله تعالى:

(١) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، هاشم معروف الحسني، ص٢٣٦.
(٢) نشرة فكر وثقافة، محمد حسين فضل الله، عدد٦١١.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴾[البقرة: ٢٥٩] فهي قضية في واقعة لا يُستدلّ بها على المطلوب، وغاية ما تدلّ على الإمكان العقلي لرجوع بعض الناس إذا أراد الله، وكذلك الكلام في أصحاب الكهف.

الزيــارة الجامعــة

في هذه الزيارة التي لم تثبت عند المحقّقين من حيث السند، فقرات مخالفة للعقيدة والقرآن، وقد تعمَّد واضعوها أن يزيِّفوا خطَّ أهل البيت عليهم السلام ويشوّهوا صورته.

هناك فقرات فيها مخالفة للقرآن حتى لو أمكن تأويلها، وعبارات يرى البعض أنّه يمكن تأويلها كعبارة «بكم فتح الله وبكم يختم» «وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وبكم ينفّس الهم ويكشف الضرّ» أو «بِكُمْ فَتَحَ اللَّهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ اللَّهُ وَبِكُمْ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَبِكُمْ يُثْبِتُ وَبِكُمْ يَفُكُّ الذُّلَّ مِنْ رِقَابِنَا وَبِكُمْ يُدْرِكُ اللَّهُ تِرَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ يُطْلَبُ بِهَا وَبِكُمْ تُنْبِتُ الْأَرْضُ أَشْجَارَهَا وَبِكُمْ تُخْرِجُ الْأَشْجَارُ أَثْمَارَهَا وَبِكُمْ تُنْزِلُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا وَرِزْقَهَا وَبِكُمْ يَكْشِفُ اللَّهُ الْكَرْبَ وَبِكُمْ يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ» وأمثال هذه الفقرات: لكن ما الفائدة من هذا التأويل إذا لم يصحّ النقل من الأساس.

وثانياً: هل يقبل العقل أن يتحدّث الأئمة عليهم السلام بكلمات فيها شبه الشرك وأنهم وسائط مع الله تعالى ولو حتى نحتاج إلى التأويل، مع العلم أنّ سيرتهم عليهم السلام وأقوالهم على خلاف ذلك. **ثالثاً:** ثم ظاهر القرآن على خلاف ذلك وقد ثبت في محلّه حجّية ظواهر القرآن ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[الشورى:

٢٨]، فالله تعالى هو الذي يُنزل الغيث من السَّماء ولا يجعل في ذلك أيّ واسطة في المقام لا بهم عليهم السلام ولا بغيرهم، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[الأعراف: ٥٧] فهو الذي يصرّف الرياح، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾[فاطر: ٤١] فهو الذي يمسك السماء والأرض أن تزولا ولا أحد يمكن أن يمسكهما من بعده إن زالتا.. ويتحدّى الله سبحانه أن يمسكهما أيُّ مخلوق معه أو من بعده، كذلك لا يستطيع أحد أن يمسكهما لا النبي صلى الله عليه وآله ولا أهل البيت عليهم السلام كما جاء من ادّعى في الزيارة «بكم يمسك السماء» الخ.. وقال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[الرعد: ٣٩] فهو الذي يمحو ويثبت، فلم يوسّط الله أحداً فيما يثبته أو يمحوه وقول الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام: «**لولا آية في كتاب الله لأنبأتكم بما يكون حتى تقوم الساعة**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[الرعد: ٣٩][1] فلو كان الله بهم يمحو ويثبت، لكانوا أعلم بما يمحو ويثبت وفي مورد الحديث ينفي الإمام عليه السلام علمه ويُرجع الأمر إلى الله، فما ورد في الزيارة «بكم يمحو ما يشاء وبكم يثبت» مخالفة صريحة للكتاب. وحتى التأويل في مثل هذه الآية يسقط مع تعليق الإمام الصادر منه عليه السلام بهذا الوضوح، حيث ينفي علمه بما عند الله حين يمحو ويثبت، ومن السخف بعد ذلك الأخذ أو التأويل لهذا المقطع من الزيارة، لأنَّ التعارض بيِّن واضح لكل ذي لبّ. مع ملاحظة أنّ التأويل إنّما يُلجأ إليه في صورة صحّة السند، إذا لم نترك الحديث لأهله عند التعارض مع القرآن كما أخبرنا أهل البيت عليهم السلام في

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٨٢.

أحاديث كثيرة منها: «**إذا جاءكم منّا حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه أو ردّوه علينا**»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً**﴾[يس: ٧١]، وقوله: ﴿**سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ**﴾[لقمان: ٢٠]، وقوله تعالى في سورة يونس الآية ٣٤: ﴿**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[يونس: ٣٤] إلى غيرها من الآيات التي وردت في القرآن الكريم في نسبة الخلق إليه تعالى من دون توسيط أحد في المقام.

ولا داعي بعد هذا العرض أن نتحدَّث عن كلِّ فقرة في هذه الزيارة ومعارضتها للكتاب، مع ملاحظة أنَّ مَن حقّق في سندها لم يعتمدها خصوصاً سيدنا الأستاذ المجدّد المرجع فضل الله حيث قال: «هي زيارة مذكورة في كتب الأعمال والأدعية وهي غير ثابتة سنداً مع الإشكال باشتمال بعض مضمونها على ما يخالف الكتاب الكريم منه قول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»، المنافي لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]»[2].

والعجيب في المقام أنّ مَن قال بالولاية التكوينية تمسَّك في أحد أدلّته بهذه الفقرات ليتحدّث عن نظرية الفيض، وأنّ كلّ شيء يخلقه الله من الرزق وغيره، إنّما ينزل في بيوتهم ثم يفيض عنهم إلى كلِّ الدنيا، ولعمري كيف يُستدلّ بالموضوع من الأخبار والزيارات على نظرية من فروع الاعتقاد، ولا يكفينا أنّه موضوع ومزوّر، بل مخالف لكتاب الله عزّ وجل كما أسلفنا الحديث. ولمزيد من التوضيح ناقشنا هذا في مبحث الولاية التكوينية، فراجع.

(١) تفسير أبي الفتوح، ج٣ ص ٣٩٢.
(٢) من صفحة بينات/ استفتاءات / زيارات

ولكن هناك فقرات لا يحسن السكوت عنها كفقرة (إياب الخلق ...) فهذه الفقرة معارضة بالقرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[الغاشية: ٢٥-٢٦]... فالحساب على الله وليس على أهل البيت عليهم السلام لأنّ ذلك يجعلهم في منزلة الربوبية، وهذه لا يعارض قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنت قسيم الجنّة والنّار**»[1] فهذا معناه أنّ مُبغض عليّ إلى النار ومحبّ عليّ إلى الجنّة بشرط العمل بطاعة الله والسَّير على نهج عليّ عليه السلام وليس المعنى أنَّ عليّا عليه السلام يُدخل إلى النّار مَن يشاء أو يُدخل إلى الجنة مَن يشاء.

إلى غيرها من الزيارات التي لم تثبت، والتي ينبغي الالتفات إلى بعض فقراتها التي تخالف القرآن والعقيدة فضلاً عن عدم صحة صدورها عن أهل البيت عليهم السلام.

وقد أوردنا في كتابنا (صحيح الدعوات) بعض ما ثبت من الزيارات، فراجع.

(١) القندوزي، ينابيع المودة، ج٢، ص٢٧.

زيارة الأربعين

لا إشكال بأن الزيارة في الأربعين والخمسين والعاشر وفي كلِّ يوم هي من المستحبات الأكيدة، فقد ورد في الحديث عن حنان بي سدير عن أبيه قال: قال لي الصادق عليه السلام: «**يا سدير تزور قبر الحسين** عليه السلام **في كلّ يوم،** قلت: لا جُعلت فداك، قال: **ما أجفاكم فتزوره في كلّ يوم جمعة،** قلت: لا قال عليه السلام: **فتزوره في كلّ شهر** قلت: لا، قال: **فتزوره في كلّ سنة،** قلت قد يكون ذلك، قال عليه السلام: **يا سدير ما أجفاكم بالحسين... وما عليك يا سدير أن تزور قبر الحسين** عليه السلام **كلَّ جمعة خمس مرات...** قلت: جُعلت فداك إنَّ بيننا وبينه فراسخ.. فقال عليه السلام **تصعد فوق سطحك... ثم تتحول نحو قبر الحسين** عليه السلام **وتقول: السلام عليك يا أبا عبد الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته**». وأما خصوص يوم الأربعين، فلم يثبت في التاريخ إلا مصادفة وصول جابر بن عبد الله الأنصاري إلى كربلاء لزيارة الحسين عليه السلام كما ورد في الطبري. أمّا التمسّك بما ورد من مجيء السبايا والرؤوس يوم الأربعين إلى كربلاء في العشرين من صفر فلا يمكن قبوله لعدة أمور:

أولاً:

الكثير من العلماء والمؤرخين ذكروا أنّ خروج موكب السبايا من الشام، كان يوم العشرين من صفر، يوم ورود جابر بن عبد الأنصاري إلى كربلاء، كالشيخ المفيد في الإرشاد، والشيخ الطوسي في مصباح الزائر، والشيخ الكفعمي وغيرهم.

ثانياً:

وكذلك نفى الطبري والكرماني والعلامة النوري في كتاب «اللؤلؤ والمرجان» وصاحب كتاب «بشارة المصطفى» وغيرهم، ورود السبايا إلى كربلاء وأثبتوا مسيرهم من الشام إلى المدينة مباشرة، هذا فضلاً عن أنّ غير واحد منهم ذكر أنَّ مكوث السبايا في الشام كان شهراً، أي تمام صفر.

ثالثاً:

ناقش كثير من المؤرّخين في قضيّة الطريق من الشام إلى كربلاء فوجدوا أنّه مغاير لطريق الشام إلى المدينة، وأنَّ المسيرة بموكب فيه ما يزيد عن عشرين امرأة وعشرين طفلاً يحتاج في الوصول إلى كربلاء، أكثر من ثمانية أيام، بحسب المسافة هذا إذا أخذنا بخروجهم من الشام يوم الثاني عشر من صفر.

وإليك بعض أسماء من أنكر وصول السبايا بوم العشرين من صفر إلى كربلاء

إضافة إلى الأسماء التي ذُكرت سابقاً، فهناك العلاّمة المجلسي حيث قال ما هذا نصّه: «اعلم أنّه ليس في الأخبار علّة في استحباب زيارته عليه السلام في هذا اليوم، والمشهور بين الأصحاب أنّ العلّة في ذلك رجوع حرم الحسين عليه السلام في هذا اليوم إلى كربلاء وإلحاق علي بن الحسين عليه السلام الرؤوس بالأجساد، وقيل في مثل ذلك اليوم رجعوا إلى المدينة وكلاهما مستبعدان لأنّ الزمان لا يسع ذلك كما يظهر من الأخبار»[1].

أقول: وكلامه رحمه الله لا يعني عدم استحباب الزيارة بل يعني عدم ثبوت زيارة الأربعين.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٨ ص ٣٣٤.

ومنهم الميرزا حسين النوري في مستدرك الوسائل ينفي ذلك بعد تعليقه على كلام ابن طاووس في كتاب (اللهوف) ومنهم الشيخ عباس القمي تبعاً لأستاذه المحدّث النوري نفى حضور أهل البيت عليهم السلام إلى كربلاء في كتابه (منتهى الآمال)، وكذا العلامة أبو الحسن الشعراني، والمحقق محمد إبراهيم آياتي، والأستاذ الشهيد المطهري حيث قال: «إنّ الوحيد الذي نقل هذا الأمر هو السيد ابن طاووس في اللهوف ولم ينقله أحدٌ غيره»[1].

وأمّا المؤيّدون لهذه المسألة، أبو ريحان البيروني، الشيخ البهائي، السيد محمد علي القاضي الطباطبائي، الميرزا محمد الإشراقي وغيرهم الذين اعتبروا أنّ أهل البيت وردوا مع الرؤوس الشريفة يوم الأربعين إلى كربلاء في العشرين من صفر تبعاً لابن طاووس في اللهوف.

وبغضّ النظر عن كلّ هذا، نؤكّد دائماً على زيارة الحسين عليه السلام في العاشر والأربعين وفي كلّ يوم، سواء وردوا إلى كربلاء أم استبعدنا ذلك، ونؤكّد على خلوّ كلّ زيارة من الممارسات التي تُسيء إلى قدسية الزيارة، وإدخال خرافات وأعمال نسمّيها شعائر ممّا يُسيء إلى حركة الحسين عليه السلام وثورته، وإلى أهل البيت عليهم السلام كالتطبير وضرب الزنجير والزحف على البطون، والمشي على الجمر وجعل الأقفال في الأجساد، وبلّ الجسد في التراب (التطيين)، وتعظيم القماش (اللون الأسود) وغيرها الكثير... وما ظهر مؤخراً من مجموعات تضع الحَلَق (الأقراط) في أذنيها وترخي شعرها وتندب راقصةً بطريقة الروك، ولا نعلم ما يخفي لنا الزمن، إذ إنّ في كلّ يوم بدعة وخرافة تُظهر الإساءة إلى أهل البيت عليهم السلام، وتبعد الثورة عن أهدافها.

أيّها الأحبّة، مواساة الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام والسبايا تكون بالسير

(١) مرتضى المطهّري، الملحمة الحسينيّة، ج ١، ص ٣٠.

على نهجهم والتزام دينهم والحفاظ على أوقات الصلاة وأداء الأمانة والابتعاد عن الكذب والسرقة وظلم الناس والأقارب وغير ذلك ممّا نمارسه مع زيارتنا ولا نتوب منه، هكذا تكون المواساة لا بمثل تلك الأفعال.

وأخيراً، ما تمسّك به البعض من رواية مرسلة عن الإمام العسكري عليه السلام أنّ علامات المؤمن خمس، صلاة الواحد والخمسين والتختّم باليمين... وزيارة الأربعين، فهذه كما ترى ضعيفة من حيث السند ومن حيث المتن، علامات المؤمن الصدق والأمانة لا التختم باليمين، ولو قلتم إنّها علامات كمال، نقول لا بأس بذلك، لكن من قال المقصود بزيارة الأربعين زيارة الحسين عليه السلام في العشرين من صفر؟ لربما يكون المقصود زيارة أربعين مؤمناً؟ وإذا دخل الاحتمال بطل السؤال.

خاتمة

أيّها الأحبّة، لا بدّ من الانتباه على مسألة الأجر العظيم الذي يرويه القصّاصون لكلّ خطوة في الزيارة، وأن كلّ زيارة تعدل كذا وكذا، وأنّ مَن لم يزر الحسين في كربلاء بات ناقص الإيمان، وأنّ الزيارة أفضل من الحج، وغيرها من المبالغات التي تُسيء إلى الدين وإلى أهل البيت عليهم السلام، فكيف تكون زيارة عَرَفَة أفضل من الحج، والحج واجب والزيارة مستحبّة، فهل المستحبّ أفضل من الواجب؟ مضافاً إلى أنّ في الحج زيارة أربع أئمة في البقيع صلوات الله عليهم، وهم زين العابدين عليه السلام والباقر والصادق (عليهما السلام)، والحسن عليه السلام، وهل الحسين عليه السلام أفضل من الحسن عليه السلام حتى يُقال ذلك، وهما سيّدا شباب أهل الجنة؟ إضافة إلى زيارة أمّهم المعصومة السيدة الزهراء عليها السلام وجدّهم رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، لا إشكال أنّ في أي زيارة للحسين عليه السلام وغيره أجراً عظيماً

وثواباً كبيراً لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى وليس القصّاصون.. فتدبّروا وأبعدوا عن أئمّتكم كلّ قبيح ومبالغة، وجرّوا إليهم كلّ مودة، فقد ورد في الوسائل الجزء العاشر باب الزيارة عن حنان ابن سدير قال للصادق عليه السلام: ما تقول في زيارة الحسين عليه السلام، فإنّه بلغنا عن بعضكم أنه قال تعدل حجة وعمرة؟ قال عليه السلام: «**ما أصعب هذا الحديث ما تعدل ذلك كلّه، لكن زوروه ولا تجفوه إنّه سيد الشهداء وسيّد شباب أهل الجنة**».

لاحظوا رَفْضَ الإمام ثواب الحج والعمرة الواحدة، واعتبر ذلك مبالغةً وصعباً فكيف بمن يعطي ثواب سبعين حجّة وألف في روايات أخرى، ومع التعارض بين الروايات ترجح هذه الرواية لموافقتها للعقل والقرآن، فتفكّر.

زيـارة عاشـــوراء

لا أريد في هذا البحث المختصر أن أبحث عن زيارة عاشوراء وسندها ومراحل التزوير والزيادة في فقراتها الذي بحثه أكثر من باحث في هذا المجال، وعلى رأسهم آية الله الشيخ حسين الراضي في كتابه (زيارة عاشوراء في الميزان) ولا أريد أن أتحدّث عن السند الذي لم يثبت عند أهل العلم والدراية وكيف جُبِرَ ضعف سندها، ولكن أريد أن أعلّق على الموضوع من ناحية أخرى، وهي هل أنّ الإمام عليه السلام من أخلاقه أن يشتم ويلعن بهذا الشكل المكرّر الذي يثير التساؤل، أم أنّ أخلاقه تمنعه من ذلك حتى لو أنَّ القاتل لا إشكال في استحقاقه اللعن، وهو الطرد من رحمة الله عزّ وجلّ.

أرى أنّ الأئمة عليهم السلام كانت أخلاقهم أرفع بكثير من هذا المستوى الذي يركن إليه الضعفاء، لشهوة في النفس أو رغبة في الذات. إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن ليلعن هؤلاء الذين يقتلونه، وهم يستحقّون ذلك، مع أنّه لو لعنهم لبُرّر ذلك لِمَا فعلوه من مجزرة بأهل بيته وأصحابه والثلّة الطاهرة منهم، لكنّه لم يواجههم بذلك، بل بالحجّة والمنطق والأخلاق الفاضلة، يأمر العباس بإجابة الشمر، ويتكلّم بالكلام الطيّب حتى أنّه كان يبكي في موقف كربلاء، فسألته أخته زينب عليها السلام: «**ممّا بكاؤك؟**» قال: «**أبكي على هؤلاء القوم يدخلون النار بسببي**»[1]، أيُّ قلب هو قلبه؟ وأيُّ

(١) الخصائص الحسينية، التستري، ص٧٨.

عقل هو عقله؟ وأيُّ إيمان هو إيمانه؟ هذه عظمة الأئمّة، وهذا دينهم، وهذا القرآن الذي جسّدوه في حياتهم، فهل يُعقل أنَّ شخصاً يبكي على قاتله، لأنّه سيُعذّب بسبب قتله له؟ ثم بعد هذه الروحية العالية والأخلاق السامية يلعنه؟ أنا لا أتصوّر ذلك.. فقط أريد أن أشير إلى هذه النقطة لأقول: إنّ كثيراً من المحقّقين لم يجدوا هذا اللون الكبير من اللعن، كالسيد مرتضى العسكري رضي الله عنه الذي سُئل عن هذه الزيارة فقال: لا يوجد في سيرة أئمّتنا هذا الشيء، وكلّ ما ورد بهذا الخصوص في زيارة عاشوراء غير صحيح، وإنّي أشكّ في أصل زيارة عاشوراء[1].

والأستاذ المرجع السيد فضل الله رضوان الله عليه المحقّق في الزيارات قال، إنّ سندها ضعيف ولم تثبت عنده إلا زيارة أمين الله وزيارة أخرى حقّقها السيد عبد الرؤوف فضل الله رحمه الله وغيره ممّن حقّق في هذا الموضوع.

۞ ۞ ۞

(١) محاضرة في المدرسة المعصومة في قم، مرتضى العسكري، ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٤.

هل اللعن من ديننا؟

الأمر الأول:

لا ننكر أنّ الله تعالى لعن في كتابه الظالمين والكافرين وطردهم من رحمته، وربما يقال إنّ هناك فرقاً بين اللعن وبين الشتم أو السبّ، فاللعن في اللغة هو الطرد من رحمة الله، بينما السبّ والشتم هو الكلام السيئ الذي يثير العصبيّات والغرائز، ويشتمل على الكلام البذيء وما إلى ذلك، وقد حرّم الإسلام السبّ والشتم لأنّه لا يأتي بخير، بل يردي قائله في المشاكل ويجرّ الويلات عليه وعلى دينه ومذهبه قال تعالى: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأنعام: ١٠٨]، لأنَّ النتيجة الطبيعية للسباب لأيّ مقدس أو أيّة حرمة أو ما إلى ذلك، سيؤدّي إلى شتم مقدّساتك وانتهاك حرماتك من باب أنّ لكلّ فعل ردّة فعل.

وقد وقف عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رأى جيشه في صفين يشتم جيش معاوية فقال لهم: «**إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ**

لَهِجَ بِهِ»[1].

ولما بلغ علياً عليه السلام أنّ حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يُظهران شتم معاوية، ولَعْن أهل الشام، أرسل إليهما أنْ كفّا عمّا يبلغني عنكما.

فأتياه، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحقّ، وهم على الباطل؟

قال: «**بلى، ورب الكعبة المسدنة**».

قالوا: فلِمَ تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟

قال: «**كرهتُ لكم أن تكونوا شتَّامين لعَّانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقّ من جهله، ويرعوي عن الغيّ من لهج به**»[2].

وورد عن الزهراء عليها السلام في تلك الحريرة المكتوب فيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الفحش من البذاء والبذاء في النار**» وغيره أحاديث أخرى كثيرة[3].

فهذا يدلّ على حرمة السبّ والشتم ويفرض احترام الآخر حتى لو كان خصماً، أو من دين آخر، لأنّ الإسلام أراد للإنسان المؤمن أن يعيش الأخلاق السامية في كلِّ تصرّفاته وأقواله، وأن يترفّع عن مثل هذه الرذائل التي تُسقط شخصية السابّ أمام الناس، والتي تجعل الحقّ عليه بشتمه وسبّه حتى لو كان الحقّ له، وتجرّ الويلات على جماعته ومقدّساته عند شتم مقدّسات الآخرين، ولذلك صوّب الإسلام الناس نحو الحوار والجدال بالتي هي أحسن، والدفع بالتي هي أحسن، ولم يوجّه إلى مثل هذه النقائص: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ**

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٦.
(٢) الأخبار الطوال، الدينوري، ص١٦٥.
(٣) دلائل الإمامة، الطبري، ص٦٥.

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥] **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**[فصلت: ٣٤].

الأمر الثاني:

لو فرضنا أنَّ شخصاً قال إنّ السبّ والشتم غير اللعن، فنحن نلتزم بحرمة السبّ والشتم، ولا نلتزم بحرمة اللعن، نقول:

إنّ اللعن في زماننا ـ لو سلّمنا أنّه كان هناك مغايرة بين المعنَيَيْن سابقاً ـ أصبح يندرج تحت معنى السبّ والشتم، ولذلك المسألة عرفية والأحكام في غالبها خاضعة في حدودها للعُرف، كغسل الوجه في الوضوء من الأعلى إلى الأسفل وحالات الضرر وتحديدها وما إلى ذلك، فهذه الأمور يحدّدها العرف، وقد أصبح اللعن في هذا الزمن شتماً بل هو أشدّ منه لأنه يثير الآخرين عليك، ألا ترون كيف تهاجمنا المذاهب الأخرى بقولها إنّنا نلعن صحابة رسول الله ويقول مشايخهم عنا إنّنا نسبّ الصحابة ونشتم أمهات المؤمنين ويضلّلوننا على هذا الأساس، ويهدر البعض منهم دماءنا لأنَّ قسماً منّا يلعن ويشتم، وليس له شغل أو عمل إلا ذلك.

وقد جاء في الروايات عن الإمام الرضا عليه السلام في كتاب (عيون أخبار الرضا) في صحيحة ابن أبي محمود حيث قال له الإمام الرضا عليه السلام: «**يا ابن أبي محمود إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام أحدها في الغلو وثانيها التقصير في أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم** (المثالب أي اللعن) **ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجل ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**[الأنعام: ١٠٨]، **يا ابن أبي محمود**

إذا أخذوا الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا فإنّه من لزمنا لزمناه، ومن فارَقَنا فارقناه، إنَّ أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة هذه نواة، ثم يدين بذلك ويبرأ ممّن خالفه، يا ابن أبي محمود احفظ ما حدّثتك به فقد جمعت لك خير الدنيا والآخرة»[1]. وهذه واضحة الدلالة بحرمة اللعن، وتجدر الإشارة إلى أنّ الأئمة عليهم السلام لعنوا مؤسّسي الفرق الضّالة والمغالية لشدّة تأثيرهم على البسطاء، فلا تعارض بين الأمرين.

الأمر الثالث:

ماذا حقّقنا من هذا اللعن تاريخياً؟ لقد حجّمنا أهل البيت الذين هم الإسلام وليسوا مذهباً، لأنّهم ليسوا مجتهدين بالمعنى المصطلح حتى يؤسّسوا مذهباً، بل هم الإسلام، لأنَّ قولهم قول جدّهم، وقول جدهم قول الله عزّ وجلّ، وجعلناهم في قمقم المذهبية، وأبعدَنا الناس عنهم وأعطينا الخصم فرصة سانحة ليحمي كلّ معتقداته من خلال هذا اللعن. إنّ مَنْ يقول بجواز اللعن والشتم لهو يعيش في أضيق الأفق ولا يرى إلا حدود نفسه حتى لو كان مرجعا دينياً، لأنَّ التخلّف قد زحف إلى عقله فأصبح كالعوام في أقواله ولا يعرف إلى أيٍّ حدّ يتأذى شيعة أهل البيت في العالم والبلاد بفتواه هذه لأنّه يعيش الأفق الضيق ولا يخرج إلى العالم ليرى تغيّراته وحاجات المؤمنين فيه.

لقد أضرّ هؤلاء بالمذهب أيّما ضرر وحجّموه أيما تحجيم، فالله نسأل أن يهديهم سواء السبيل.

ويروي الرواة أنّ جماعة من أهل العراق دخلوا على الإمام علي بن الحسين عليه السلام وذكروا أبا بكر وعمر وعثمان بسوء ونالوا منهم، فقال لهم: «**ألا تخبروني من أنتم، أنتم من المهاجرين الأوّلين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن**

(١) عيون أخبار الرضا، ص١٦٨.

دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر: ٨] قالوا لا، قال: **أفأنتم من ﴿الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**[الحشر: ٩]، فقالوا: لا، فقال: **أمّا أنتم فقد تبرّأتم من أن تكونوا من هذين الفريقين وأنا أشهد أنّكم لستم من الذين قال الله في حقّهم، ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾**[الحشر: ١٠]، **أخرجوا عنّي فلا بارك الله فيكم**»[1].

(١) كشف الغمة، ج٢، ص٢٩١.

حديث الكساء

عن ابن عساكر في تاريخه قال بسنده إلى أم المؤمنين عائشة أنّها قالت:

«خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة وعليه مِرْط مرحّل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فأدخله، ثم جاء الحسين عليه السلام فدخل معه، ثم جاءت فاطمة عليها السلام فأدخلها، ثم جاء علي عليه السلام فأدخله، ثم قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[الأحزاب: ٣٣]»

ومثله رواه في سنن البيهقي، والحاكم في المستدرك، وابن جرير الطبري وغيرهم، وروى الطبري في تفسيره بسنده إلى أم المؤمنين أم سلمة قالت لمّا نزلت الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[الأحزاب: ٣٣]» دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فجلّل عليهم كساءً خيبرياً فقال: «**اللهمّ إنَّ هؤلاء أهل بيتي وعترتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**» فقالت أم سلمة: ألستُ منهم؟ قال: **أنتِ على خير**، هذا هو الحديث الصحيح المتّفق عليه عند الفريقين.

أما حديث الكساء الوارد في كتاب (المنتخب للطريحي) فهو يتألّف من شِقَّين:

الأول إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهمّ هؤلاء أهل بيتي**..» لا إشكال فيه وهو موافق لما رواه الفريقان ولكن بألفاظ مختلفة ذات معنى واحد ووصل إلى حدّ

التواتر، وأكّده فعل رسول الله الذي كان يمرّ بباب فاطمة الزهراء عليها السلام مدّة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر فيقول: «**الصلاة يا أهل البيت!**» ويتلو الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[الأحزاب: ٣٣][1].

وما ادُّعي من صحة السند إنّما هو للحديث الذي أوردناه، وأمثاله بألفاظه عند الرّواة في الكتب القديمة.

وأمّا الشقّ الثاني وهو موضوع النقاش، بل ينبغي عدم النِّقاش فيه لوضوح بطلانه ومعارضته لأصول الحديث والعقيدة، ومخالفته الصريحة للقرآن والسُّنّة، ولكنّنا نناقشه هنا لسريانه بين الناس كالنار في الهشيم، حتى غدا عند البعض بمنزلة القرآن للأسفار وما مجلس حديث الكساء الذي اخترعه وابتدعه بعض قرّاء العزاء إلاّ لتزداد قداستهم أو لغايات أخرى...

ولتبيان عدم صحّة ما ذهبوا إليه، نقول:

أولاً: كلّ الروايات التي وردت من طرق الفريقين لا يوجد فيها الشق الثاني، أي هبوط جبرائيل عليه السلام وقوله عن الله: (ما خلقت سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية.. الخ)[2]

ثانياً: أقوال العلماء فيه

نُقل هذا الحديث واشتُهر من خلال كتاب مفاتيح الجنان للمحدّث الشيخ عباس القمي رضي الله عنه، ولكن الشيخ نفسه تحدّث في كتابه (منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل) عندما تحدّث في الفصل التاسع عن حياة الإمام الحسين عليه السلام وإرسال يزيد أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة تحت عنوان «تذييل» يقول عن الحسين عليه السلام إنّه خامس أصحاب الكساء

(١) صحيح الترمذي، ج٥ ص١٤٢.
(٢) عوالم العلوم، البحراني، ج٢ ص٩٣٠.

وهذا من ألقابه الشائعة المعروفة، وواقعة اجتماع الخمسة من الأحاديث المعروفة المتواترة التي رواها الخاصّة والعامّة، وقد نزلت آية التطهير فيهم بعد اجتماعهم تحت الكساء... إلى أن يقول: أمّا حديث الكساء المعروف عندنا (أي مع الشقّ الثاني) فإنّه لم يرد في الكتب المعروفة المعتبرة في أصول الحديث والمجامع المتقنة للمحدّثين بهذه الكيفية، ويمكن القول بأنّ هذا من خصائص كتاب المنتخب[1].

ويُنقل في «عدّة الدّاعي» أنّ حديث الكساء المشهور يُعدّ من متفرّدات منتخب الطريحي[2].

وحتى في كتاب المنتخب رواه مقطوع السند يقول: «رُوِيَ عن فاطمة الزهراء عليها السلام»[3] فهو مقطوع السّند وبالتالي ليس ثابتاً.

هذا مع ملاحظة أنّ كتاب «المنتخب» لا يزيد عمره عن ٥٠٠ سنة وهذا العمر القصير يؤكّد تزوير الحديث والزيادة عليه، وأنّه من الموضوعات أيّ الشق الثاني من عند نزول جبرائيل، إذ لو كان معتبراً لما كان لما بعد ألف سنة تقريباً من عصر النص.

وهكذا عندما بحث فيه غير واحد من العلماء والمحقّقين كالشهيد السيد محمد باقر الصدر الذي كان يرى أنّه لا بدّ من تعديل كتاب مفاتيح الجنان لما فيه من الزيادات المخلّة بالعقيدة والمذهب[4] وكذا ما كان يراه السيد الخوئي من أنّ مفاتيح الجنان لا قيمة له علمياً من حيث الإجمال.

---

(١) منتهى الآمال، القمي، ج١ص٧٨٨ ـ طبع مؤسسة النشر الطبعة الخامسة وكذا الطبعة الفارسية وللملاحظة فإنّ المغرضين قاموا بحذف هذا الكلام من الطبعات الحديثة للكتاب.

(٢) الكنى والألقاب، القمي، ج٢ ص٢٣٨

(٣) المنتخب، الطريحي ص٢٥٣.

(٤) في رسالة إلى تلميذه السيد محمد الغروي.

وقد تحدّث فيه مؤخراً الشيخ الريشهري وله بحث طويل حول حديث الكساء الذي رواه الطريحي وثبت في المفاتيح فأبطله[1] وكذلك يوجد بحوث لغير واحد من العلماء على صفحات الإنترنت يمكن مراجعتها، لهذا لا نطيل في أقوال العلماء لنعلّق بما نريد التعليق عليه فنقول: نعم كيف يمكن أن يوجد مثل هذا الحديث الذي هو من متفرّدات صاحب المنتخب في كتاب مفاتيح الجنان الذي يرفضه صاحبه فهذا ممّا يدلّ على تحريف كتاب المفاتيح وعدم إمكانية الاعتماد على أدعيته وزياراته، إلا بما وافق كتاب الله خصوصاً مع ملاحظة بعض الأدعية التي لا تخلو من شائبة الشرك والتي بحثنا بعضها ضمن فصل الأدعية فراجع. وقد بحثه الأستاذ محمد ترحيني في كتابه «عقائد الإمامية بين الأصيل والدخيل» ورفضه الإمام الخالصي في كتابه علماء الشيعة في مواجهة الانحراف والبدع الدخيلة على الدين.

ثالثاً: ملاحظة فقرات هذا الحديث تخالف القرآن والعقل السليم وروح التوحيد حيث لم يحدّث القرآن عن خلق الكون لأجل أحدٍ من المخلوقين كما تزعم بعض فقرات الحديث ما (خلقتُ سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية...) إلخ.. بل ما حدّثه القرآن الكريم على خلاف هذه الفقرات حيث يتحدّث الله تعالى عن خلق الجنّ والأنس للعبادة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: ٥٦] فعلّة الخلق العبادة، وليس أهل البيت، وإن كانوا على رأس تلك العبادة والعباد، وهم المصداق الأول والأرفع في تحقيق العبودية لله عزّ وجلّ. ثم إنّ القرآن كلّه على خلاف فقرات هذا الحديث. فالله تعالى عندما يتحدّث عن خلق بعض الأمور، وأنّه خلقها للبشر لا لنفر

(١) أهل البيت في الكتاب والسنة، الريشهري، ص ٣٩ وللملاحظة فقد ذكرت بعض الجرائد والوكالات الإخبارية أن الشيخ الريشهري أمر بحذف هذا الحديث المزوّر من جميع كتب مفاتيح الجنان الموجودة في حرم عبد العظيم في طهران.

دون غيرهم، أو لأجلهم قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**﴾[الروم: ٢١] فنسب الخلق إليه ثم فرّعه للبشرية كلّها (**خلق لكم**) وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾[الروم: ٤٠]. فالخطاب لكلّ البشر في الخلق والرزق وغير ذلك كما هو واضح بيّن، وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾[يس: ٧١] وكذا قوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾[النحل: ٥].

وهكذا في آيات تسخير بعض المخلوقات للبشر، لم يوسّط ربُّنا سبحانه وتعالى أحداً في البين، ولم يوجد أحداً علّة لخلق هذه الأمور. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ [لقمان: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ**﴾[إبراهيم: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً**﴾[النحل: ١٤]، فهذه الآيات وأمثالها كُثُرٌ في القرآن تدلّ بصراحة أنّ الله خلق ذلك للبشرية جمعاء، لا لأجل أحدٍ منها دون غيرهم، ثم إنّ هذه الآيات تعارض ما ورد في الزيارة الجامعة كذلك، فراجع.

ثم توسّع خيال القَصّاص الواضع ليفرط في الأجر وقضاء الحوائج وتفريج الهموم وما إلى ذلك، مما هو خلاف الواقع (ولا يعني هذا أنّنا ننكر استجابة الدعاء ببركة المعصومين)، ووصل الأمر إلى تقديم الحديث ومجلسه على مجالس القرآن والاهتمام به ظاهر للعيان وابتداع مجالس كمجلس سورة الأنعام والغاية من ذلك كما يدّعون القرب من أهل البيت عليهم السلام وقضاء حوائج الناس، وحمل العقيم، وتزويج المحتاجة، وما إليه

من أمور قد يستجيب الله تعالى لصاحبها إذا دعاه وقد لا يستجيب ،ولا إشكال عندنا أنّ الدعاء مستجاب بشروط، منها تقديم الصلاة على محمد وآل محمد كما أسلفنا الحديث عن ذلك.

وقد أفرط بعض أهل زماننا من الخطباء المعروفين وأطلق العنان لمخيّلته ودعاويه فأحضر في مجلسه ما يزيد عن طن من الشوكولاته وقرأ عليه حديث الكساء، وأقسم أَيْماناً مغلّظةً لو أكلت قبيلة بأسرها من حبة واحدة لشُفيت من أمراض عضال، وهذه الحركات هي من صنعه ليزداد قداسة أمام الناس البسطاء، حتى أنه جعل عرق يده مقدّساً وأقنع الناس بأنّه عرق الحسين وهكذا من بصاقه، وأقسم أنّه يشفي، ولعمري أين «العقلاء» لا أدري، وقد علّقتُ على الموضوع بكلمة أن وزّعوا هذه الحبات على المشافي، على مرضى السرطان الذي يتفشّى بشكل كبير وليقل لنا هل يشفي الناس؟ ثم لا يدّعين أنّ النقص من الناس وأنّهم لا يعتقدون بذلك، فكثير من البسطاء وصلوا إلى قناعة بكلامه حدّ اليقين. وأكتفي بهذا التعليق لأنّ مهزلة الغلو والخرافات وادّعاء الكرامات وإعطاء القداسات في زماننا لا ضابط لها ولا دين فيها، ففي كلّ يوم نسمع شيئاً مبتدعاً واختراعاً مصطنعاً، ثم نقدّسه بجهلنا وننسبه إلى أهل البيت عليهم السلام والحسين بالخصوص لنستدرّ مال الناس.

فهؤلاء كما يقول الإمام العسكري في حديث طويل عن الذين يُدخلون أمثال هذه الأحاديث فيتقبّلها الشيعة على أنّه من علومهم، بأنهم: «**ضلّوا وأضلّوا، وهم أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي عليهما السلام وأصحابه**»[1].

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧ ص١٣١.

مرتبة الإمامة

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

في هذه الآية مباحث عديدة:

المبحث الأول

ما هي هذه الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها نبيّه إبراهيم عليه السلام ؟

يقول سيدنا الأستاذ المرجع السيّد فضل الله رضي الله عنه في تفسيره: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ﴾** أي اختَبَره في حركته في خطّ المسؤولية الرّسالية ليظهر إخلاصه وقدرته على تحمّل المسؤولية **﴿بِكَلِمَاتٍ﴾** ممّا أوحاه إليه في الصُّحف التي أنزلها عليه، وفي المسؤوليّات المتنوّعة التي حمّله إياها **﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾** ووفّى حقّهن بالدعوة والانقياد والتحدّي في مواجهة الكفر والاستكبار ولم يقصّر في تحمّل مسؤوليّاته، فاستحقّ درجة القدوة التي يأخذ الناس بها ودرجة الولاية لتنطلق النبوّة في خطّ التبليغ وتتكامل مع الإمامة في خطِّ الواقع[1].

إذاً، فالظاهر أنَّ الكلمات هي التكاليف التي كلّفه الله بها والمسؤوليّات التي حمّله إيّاها من الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، فتحمّل عليه السلام

(١) تفسير من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله.

في سبيل الله ألوان الأذى من أقرب الناس إليه، من أبيه آزر الذي هدّده قائلاً: ﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾[مريم: ٤٦] إلى قومه الذين أعدّوا العدّة لإحراقه بالنار فـ: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾[الأنبياء: ٦٨] فكانت عليه النار برداً وسلاماً بإذن الله تعالى نصرة لعبده ودينه بعد أن: ﴿**أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**﴾[الأنبياء: ٧٠] ثم ابتلاه الله بالخروج من بني قومه وترك أهله وديارِه إلى بلاد الشام ثم بترك زوجته وابنه في مكة في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا كلأ: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾[إبراهيم: ٣٧].

ثم ابتلاه الله تعالى بذبح ولده إسماعيل عليه السلام الذي كان بدوره مطيعاً لله ولرسوله: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[الصافات: ١٠٢]

إلى غيرها من البلاءات والتكاليف التي نجح فيها إبراهيم عليه السلام وأتمّها وكان مطيعاً لله في كلِّ ما أَمَره، صابراً على كلِّ ما ابتلاه، حتّى اتّخذه نبيّاً وخليلاً ووصفه بأنّه ﴿**الَّذِي وَفَّى**﴾[النجم: ٣٧] وما إلى ذلك فيما ورد من آيات مدح إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثاني

هل منصب الإمامة أرفع من منصب النبوّة؟

تصوّر البعض من خلال سياق الآية أنَّ الله خاطبه عليه السلام بعد إتمام هذه الأوامر والنجاح فيها بإعطائه منصباً أرفع هو منصب الإمامة ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[البقرة: ١٢٤] فكأنّ الله تعالى أعطاه هذا المنصب

كما يعتقد بعض المفسِّرين بعدما أتمَّ الأوامر ونجح في الامتحان مع العلم أنّه كان في تلك الأثناء نبياً وخليلاً، فزاد ذلك المنصب، لكن هذا الفهم غير تامّ، ولا يمكن الأخذ به والاعتماد عليه لعدّة أمور:

أولاً: ما معنى كلمة الإمامة؟

للإمامة معنَيَان:

الأوّل: لغويّ، أي الاقتداء بالإمام قولاً وفعلاً، كما نقتدي بإمام الجماعة بالقول فلا نقرأ الفاتحة والسورة وبالفعل فلا نركع ونسجد قبله، ولا نقوم منهما قبله، وغير ذلك فهذا معنى الإمامة بالمعنى العام أي الاقتداء بالإمام قولاً وفعلاً، لأنّه قدوة وأسوة حَسَنة وحُجّة على الناس.

الثاني: شرعي، أي بمعنى الحاكميّة، بحيث يدبّر شؤون الأمّة وسياستها ويقوم بأمورها ويقيم الحدود على مستحقّيها ويقضي بين الناس ويسوس العباد والبلاد ويدفع الأخطار عنها وهكذا في كلّ أمور الدولة.

ثانياً: ما معنى النبوّة؟

النبوّة معناها وأصلها من النبأ والنبوءة، أي إنباء وإخبار الناس عن الله بالدين والشريعة وكلّ ما فيه هداية لهم[1]، فالنبي وظيفته الأولى هي الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالاته، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾[الأحزاب: ٤٥] وقال: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف: ٦٢].

وهنا لا يخفى على ذي لبّ أنّ النبوّة تشترك مع الإمامة بالمعنى اللغوي من هذه الجهة فيكون كلّ نبي إماماً يُقتدى به قولاً وفعلاً كالإمام، فضلاً عن كونه داعية إلى الله متّصلاً بالوحي.

(١) معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة العربية.

وأمّا بالمعنى الثاني فليس بالضرورة أن يكون جميع الأنبياء كذلك، أي لديهم صفة الحاكمية من كلِّ الوجوه، وإن كان دورهم والهدف في بعثهم لا يقتصر على التبليغ فقط، بل يمتدّ إلى التنفيذ كما أخبر القرآن في أكثر من آية، حيث أكّد أنَّ رسالة الأنبياء لا تقتصر على الدعوة إلى الله من خلال البيّنات والأحكام، بل لا بدّ من الحكم والفصل بين الناس من خلال الكتاب والميزان، فالله تعالى يحدِّثنا عن داوود عليه السلام: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[ص: ٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا**﴾[البقرة: ٢١٣].

وهكذا قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[الحديد: ٢٥] إلى غيرها من الآيات التي تدلّ على أنّ دور الأنبياء ليس مقتصراً على الدعوة إلى الله فقط وإن كان هذا الأساس في بعثهم عليهم السلام، بل يمتدّ إلى إقامة الحقّ والعدل والحكم بهما، وهذا المعنى الثاني للإمامة، أي المعنى الشرعي وعليه يكون كثير من الأنبياء أئمّة بالمعنَيَيْن، وهذا ما يؤكّده الله تعالى في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[الأنبياء: ٧٣]، وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[السجدة: ٢٤]، والحاصل من هذا البحث المختصر أنّ كلَّ نبي إمام بالمعنى الأول للإمامة، وأكثر الأنبياء أئمّة بالمعنَيَيْن الأول والثاني، والعكس ليس صحيحاً أي ليس كلّ إمام نبيّاً فالنسبة بينهما العموم والخصوص مطلقاً.

ليس في الآية ما يدلّ على الرتبية بحيث أعطاه ذلك المنصب الرفيع زيادة في رتبته لنجاحه في الابتلاءات التي مرّت عليه بعد أن كان نبيّاً وخليلاً، ولذا نجد أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يتفاجأ عندما قال له: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[البقرة: ١٢٤] وليس ذلك إلاّ لأنّه كان يمارس الإمامة بشكلٍ طبيعي، بل الآية تدل على إعطائه وظيفة ومهمّة كغيرها من الآيات التي وصفته تارة بأنّه نبي، وأخرى بأنّه خليل، وثالثة بأنّه إمام، وهكذا.. ولذلك نرى إبراهيم عليه السلام طلب هذه المهمّة لذرّيته باعتبار أنّه كان يحمل همّ الدعوة إلى الله وامتدادها وإقامتها في الأرض، وأراد ذلك في ذرّيته لتستمرّ الدعوة وتتوسّع في الزمان والمكان.

وهذا المعنى تؤكّده الرواية الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال له رجل: أصلحك الله كيف صرت إلى ما صرت إليه من المأمون؟ وكأنّه أنكر ذلك عليه (ولاية العهد)، فقال له أبو الحسن الرضا عليه السلام **يا هذا أيّهما أفضل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الوصيّ؟** فقال: لا بل النبي، قال: **فأيهما أفضل مسلم أو مشرك؟** قال: لا بل مسلم، قال: **فإنّ العزيز عزيز مصر كان مشركاً وكان يوسف عليه السلام نبيّاً وأنّ المأمون مسلم وأنا وصي ويوسف سأل العزيز أن يوليه حين قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وأنا أُجبرت على ذلك**[1].

وهذه تدلّ بصراحة على أنّ منصب النبوّة أرفع من منصب الإمامة ولو كان في ذهن السائل للإمام أدنى شبهة خلاف ذلك لقال الإمام، الإمامة أفضل، ولكنّه من دون تردّد قال، بل النبوّة، ولو قال أو كان معتقداً خلاف ذلك لوجب على الإمام لكونه في مقام البيان أن يبيّن أيّهما أفضل، ولكن

(١) عيون أخبار الرضا، الصدوق، ج٢ ص١٣٩.

لوضوح المسألة أوّلاً، ولتأكيد الإمام بصراحة على أنّ النبوة أرفع من الإمامة، فهو فعل ذلك مكرَهاً، ويوسف نبيّ وهو أفضل من الإمام وقَبِل ولاية العزيز طوعاً.

وقد طُرحت هذه المسألة على سيّدنا الأستاذ السيّد فضل الله ﷺ فأجاب أنّه:

ورد في كتاب «عيون أخبار الرّضا عليه السلام» للشّيخ الصّدوق ما يخالف مقولة إنّ مقام الإمامة أرفع وأفضل من مقام النبوّة، فقد رُوِيَ أنّه جاء شخصٌ إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله: كيف قبلت ولاية العهد من المأمون، مع أنّ المأمون رجل فاسق؟! فقال له الإمام: أنا أسألك: **النبيّ أفضل أم الرسول؟** قال له: النبيّ، فقال له الإمام: **المسلم أفضل أو الكافر؟** قال له: المسلم، فقال له عليه السلام: **إنّ يوسف عليه السلام نبي وعزيز مصر كافر، مع ذلك قال له: اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم، وأنا وصيّ ولست نبيّاً والمأمون مسلم، فهو عندما طلب مني ولاية العهد قبلتها كرهاً وأنا وصيّ، بينما يوسف عليه السلام قبل ذلك طوعاً وهو نبيّ**». وهذه الرواية معتبرة وموجودة في كُتُبِنا.

فالإمام (سلام الله عليه) يؤكّد أنّ الأنبياء هم أفضل من الأوصياء والأئمّة عليهم السلام، لأنّ النبيّ يتّصل بالله مباشرة، وهو مُرسل من قِبله، والإمام مرتبطٌ بالله من خلال النبيّ.

والإمامة في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[البقرة: ١٢٤] تعني القيادة مع النبوّة، فدور النبيّ الأوّل هو أن يبلّغ الناس، ودوره الآخر هو قيادة الناس. ولذلك فإمامة إبراهيم عليه السلام ليست بالمعنى المصطلح، لأنّ الإمامة بهذا المعنى هي خلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والوصاية عنه، وإنّما المقصود بـ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ أي جاعلك نبيّاً في خطّ القيادة

للنّاس ليتبعوك في حركتهم في الواقع، إذاً، فكلّ نبيّ إمام وليس كلّ إمام نبيّاً، والأئمّة عليهم السلام لهم مرتبة الإمامة التي تمثّل الامتداد لوظيفة النبوّة من دون نبوّة، فلا إشكال في أنّ النبي أفضل من الإمام. كما ينقل الشيخ المفيد أنّ العديد من العلماء قطعوا بأفضلية أنبياء أولي العزم على الأئمة، كما أنّ البعض قال بأفضلية سائر الأنبياء على الأئمة[1] وما قاله سيّدنا الأستاذ السيّد فضل الله رضي الله عنه إنّه لا بدّ أن لا نبحث في هذه المواضيع التي تدور حول أفضلية عباده المكرمين على بعضهم.. لأنّنا لا نكلّف في ذلك وهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

المبحث الرابع

الآية فيها دلالة واضحة على أنّ هذا العهد الذي هو الإمامة يكون أولاً بجعل من الله لقوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ**﴾ فمنصب الإمامة يكون بجعلٍ من الله عزّ وجلّ وبيده، ولذلك نعتقد نحن الإمامية بأنّ الإمام لا بدّ من النّص عليه بالاسم، لأنّه منصب إلهي جَعْلي ليس بيد النّبي ولا الأمة، بل بيد الله عزّ وجلّ، ويؤيّد هذا المعنى ما جاء في الحديث المشهور «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**» وحديث رسول الله للحسين: «**هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمّة تسعة تاسعهم قائمهم**»[2] لذلك قال البعض بحرمة إطلاق لفظ الإمام على غير المعصوم لأنّه جعلي، ولكن لا نرى إشكالاً في إطلاقه على أشخاص غير معصومين لأنّهم أئمة هدى بمعنى أدلاّء للناس على طريق الهدى، لا بمعنى الخلافة للنبوّة أو بمعنى أنّهم قادة للناس سياسياً وغير ذلك كما يُطلق على الكثيرين في عصرنا أو كما يُطلق على إمام الجماعة، بل قد يُطلق على مَن يضلّ الناس بإمام ضلال كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ**

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، المفيد، ص٧١.
(٢) ينابيع المودة، القندوزي، ج١ باب ٥٤.

﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وهذا يختلف كثيراً عن كونه وصياً للنبي وإماماً بعده، فلاحظ.

المبحث الخامس

إنّ منصب الإمامة لا يكون إلا لمن أخلص قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً لله عزّ وجلّ، فلم يظلم نفسه بالمعصية طرفة عين، ولم يظلم الناس من حوله حتى يستحقّ منصب الإمامة، وهذا ما يُوحيه آخر الآية: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤]، فعهد الله الذي هو الإمامة وعهود الله كثيرة طبعاً لم تنحصر بالإمامة، فَدِينُ الله عهده، والنبوّة عهد الله وهكذا غير ذلك، ليس هنا محلّ بحثه، ولكن الآية تنفي مطلق الظلم عن الشخص الذي سينال هذا المنصب، ومطلق الظلم يشمل الصغير منه فضلاً عن الكبير طوال مراحل العمر.

وأعظم الظلم ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] فلا ينال هذه المرتبة من أشرك بالله أو عبد وثناً، لذا يجب على المسلم أن يتدبّر بهذا المعنى خصوصاً في مَنْ يخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإليك مثالاً لتوضيح الفكرة، فلو أنّ شخصاً كان سيئاً وذا سمعة غير سويّة مُتَّهماً في دينه، ككونه شارب خمر أو زانياً أو غير ذلك ـ ولا إشكال أنّ الله يتوب عليه إذا تاب ـ وأراد أن يصلّي بالناس جماعة فسترى الناس تُحجم عنه وتذكر تاريخه السيّئ ـ هل نصلّي خلف مَن كان يفعل كذا وكذا؟ مع أنّ ذلك خلاف الدين، لأنّ التائب من الذنب كَمَن لا ذنب له، فلا يُقبَل اجتماعياً، فكيف يُقبل مَنْ سجد لصنم أو أخطأ أخطاءً فادحة لخلافة الأنبياء، وهذه هي الحكمة من العصمة في الخليفة أو الإمام، لأنّه أولاً إن لم يكن معصوماً فاحتمال الخطأ وارد في كلامه ونقله عن الله،

وبذلك ينتفي غرض المولى عزّ وجلّ مِن جعلِه إماماً.

وثانياً يبطل كونه قدوةً للناس، لأنّهم سيتذكّرون تاريخه السيئ، فيُحجمون عن الاقتداء به، ويقومون بالاستهتار بشخصه والاستهزاء به.

لذا يفرض العقل عصمة الإمام كما تفرض هذه الآية بإطلاقها عصمته فلا ينال الإمامة مَنْ كان ظالماً، أي لم يكن معصوماً، نعم، ربّما يقال إنّ علياً عليه السلام يختلف حكمه عن منصب الإمامة، التي هي دون رتبة النبوّة، لأنّ علياً عليه السلام وصفه الله تعالى بما لم يصف به أحداً من خلقه، حيث جعله نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آية المباهلة، ممّا يفرض بمقتضى المقابلة أن تكون رتبته أعلى وأرفع من الأنبياء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لما ثبت لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أمّا باقي الأئمّة فربّما يُقال بأفضليّتهم على الأنبياء العاديين كأنبياء بني إسرائيل لا مطلق النبوّة والله العالم.

مـوت المعصومـين عليهم السلام

نتحدّث في البداية عن موت النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، هل مات بعد مرضه أو أنّه استُشهد بالسُّم، فقد ورد في سيرة ابن هشام: أنّ التي دسّت السمّ للنبيّ هي زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، وأنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاك من الشاة مضغة فلم يسغها، فلفظها، ثم قال: إنّ هذا العظم ليخبرني أنّه مسموم.. وكان معه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها وأساغها.. فسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك اليهودية عن ذلك.. إلى أن قال: فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومات بشر من أكلته التي أكل[1].

طبعاً هذه الرواية وأشباهها بعد الفراغ من عدم صحة السند ولا نريد النقاش فيه بعدما قال السيد الخوئي قدس سره إنّه لم يثبت لنا صحة تلك الرواية[2].

وقبله الشيخ البهائي الذي قال: والجواب عمّا رُوي من أكله صلى الله عليه وآله وسلم من اللحم الذي أهدته إليه اليهودية بأنّ الرواية لم يثبت عندنا صحّتها فضلاً عن تواترها[3].

نلاحظ على الرواية عدّة ملاحظات:

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٣٧.
(٢) فتاوى السيد الخوئي ، باب المسائل متنوعة
(٣) رسالة في حرمة ذبائح أهل الكتاب للبهائي العاملي، ص٧٣.

أولاً: هل كان النبي ﷺ بهذه البساطة لكي يأكل من طعام يهودية قُتِل أهلُها وأحباؤها على يديه عند فتح خيبر، من دون أن يفكّر ولو للحظة بأنَّ في الأمر شيئاً خصوصاً على قول الذين يزعمون إنّه يعلم الغيب؟

ثانياً: أقلُّ إنسان مسؤول في أيِّ جماعة أو دولة يتحرّز أمنياً عندما يكون له أعداء يتربّصون به شراً، فكيف برسول الإسلام الذي كثر أعداؤه وحسّاده من المشركين واليهود وغيرهم فكيف لا يأخذ احتياطه؟

ثالثاً: إن كان النبي ﷺ يعفو عن حقِّه كما تزعم الرواية، فلا بأس.. ولكن السؤال كيف يعفو عنها وقد تسبّبت بقتل بشر بن براء الذي أكل مع النبي حسب الرواية، فهل بيده العفو عن دم مقتول عمداً أم عليه إقامة الحدّ على القاتل؟ ثم كيف يتناسب أكل وشرب المعصوم للسمّ وهم يعلم الغيب كما تدّعون؟ أليس هذا إلقاء للنفس في التهلكة؟ وهل يجوز ذلك على المعصوم (طبعاً نحن أثبتنا في مبحث علم الغيب أنّهم لا يعلمون إلاّ ما علّمهم الله، فراجع).

أكتفي بهذا التعليق على الرواية المردودة بأبسط قواعد العقل والفهم والتي سُئِل عنها سيّدنا الأستاذ المرجع فضل الله ﷺ فأجاب أنّ: «هناك بعض الروايات تقول إنّ امرأةً يهوديةً قدَّمت إليه ذراعاً لشاة مسمومة، فأكله فمرض بسبب ذلك، وتوفّي على هذا الأساس؛ ولكن هذه الرواية غير صحيحة، بل إنّ وفاة النبي ﷺ كانت نتيجةً لمرضٍ عاديٍّ من خلالِ تأثير المرض على جسده»[1].

ولكن مشكلة الكثيرين أنّهم يريدون أن يثبتوا الرواية التي تقول: «ما منّا إلا مقتول أو مسموم»[2] وهذه الرواية ليست ثابتة من حيث السند، فضلاً

(١) نشرة فكر وثقافة/ التاريخ ١٧ جمادى الثانية ١٤٢٩هـ، الموافق: ٢١/ ٠٦/ ٢٠٠٨ م.
(٢) كفاية الأثر، القمي، ص ١٦٠.

عن أنّ هناك قسماً من الأئمّة الأطهار عليهم السلام لم يثبت أنّهم قُتِلوا بالسُّم كـ زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام وغيرهم. حتى الرضا عليه السلام الذي يرفض السيد محسن الأمين في كتابه (أعيان الشيعة) أنّه مات مسموماً بل يؤكّد أنّ المأمون كان يحبّه ويقدّسه.

وفي هذا يقول الشيخ المفيد: «فأما ما ذكره أبو جعفر (الصدوق) رحمه الله من مُضيِّ نبيّنا والأئمّة عليهم السلام بالسُّم والقتل، فمنه ما ثَبُت، ومنه ما لم يثبت، والمقطوع به أنّ أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام خرجوا من الدنيا بالقتل ولم يمت أحدهم حتف أنفه، وممّن مضى بعدهم مسموماً موسى بن جعفر عليه السلام ويقوى في النفس أمر الرضا عليه السلام وإن كان فيه شك، فلا طريق إلى الحكم فيمن عداهم بأنّهم سُمّوا أو اغتيلوا أو قُتلوا صبراً، فالخبر بذلك يجري مجرى الإرجاف، وليس إلى تيقّنه سبيل[1].

ثم لا أدري هل هي منقصة أن لا يكون إمام من الأئمة عليهم السلام قد مات بشكلٍ طبيعي حتى نريد إثبات ذلك لهم بأيِّ طريقة؟ ثم هل قتل أيّ إمام بالسُّم أو غيره يزيد في رتبته عند الله تعالى حتى نحتاج إلى مثل هذا الكلام؟ أم هذا ممّا درجنا عليه من ثقافة الحزن والمأساة التي نريد أن نتفجّع فيها بأيِّ أسلوب أو طريق حتى لو لم يكن صحيحاً؟

وهناك نقطة: وهي أنّه لا إشكال عندنا أنّهم من الشهداء الذين ذكرتهم الآيات القرآنية بحيث يشهد كلّ إمام أو نبي على قومه في تبليغ الرسالة لهم وإقامة الحُجّة عليهم، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾[البقرة: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[النساء: ٤١].

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد، ص ١٣١ – ١٣٢، المقنعة ص ٧٢ ـ٧٥ ط ١٢٧٤ هـ والإرشاد عند تعرّضه لوفاة كلّ إمام من الأئمة.

فهم الشهداء على الخلق لأنّهم الحجج على الناس والأدلاّء على الله عزّ وجلّ، وهذا من أرفع وأرقى المناصب عند الله تعالى، وهي رتبة حمل الرسالة وتبليغها فليس من الضرورة أن يُقتلوا بالسُّم أو السيف حتى يُزاد في رتبتهم وعلوّ منزلتهم، أو حتى نثبت من خلال رواية لا قيمة لها علمياً ذلك، فقط لأنّنا درجنا على المأساة فأصبحنا أمة البكاء والحزن ونسينا الهدف من وراء كلّ هذا البكاء والحزن الذي يحوّل الإنسان إلى طاقة إنسانية وعلمية وحركية تنتج حياة وإيماناً وصدقاً وعدلاً وتحرّراً وقوة أمام الأعداء، لقد أدمنّا المأساة وحبسنا الحسين وأهل البيت عليهم السلام في زنازين الحسينيّات وعلب الخرافة وفبركة الكرامات علماً بأنَّ أعظم كراماتهم أنّهم أولياء الله و﴿**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾[الأنبياء: ٢٦] ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[الأنبياء: ٢٦ـ٢٧].

الشهادة الثالثة

نحن هنا لا نريد بحث هذه المسألة بجميع تفاصيلها، ولكن نشير إليها باختصار غير مخلٍّ، باعتبار أنّ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة أصبحت من الشعائر الأساسية التي لا يُتخلّى عنها، بل ربّما يلهج لسان بعض الجَهَلة على مَنْ لا يذكرها في إقامته، على أنّه من الخارجين عن المذهب والملّة، والسؤال هل أنّ الشهادة الثالثة جزء من مضمون الأذان والإقامة؟

وهل هناك في الأدلّة ما دلّ على الجزئية في المقام؟

وما هو منشأ هذه الشهادة وأقوال العلماء فيها؟

أولاً: لم يقل أحد من العلماء إنَّ الشهادة الثالثة جزء أو فصل من فصول الأذان والإقامة، بل يكاد ذلك يكون مستغرباً أشدّ الاستغراب للقائلين به، كما سيتبيّن ذلك عند استعراض كلماتهم، فلم يعتبرها أحد جزءاً مستحبّاً فضلاً عن الواجب، بل اعتبرها بعض المتأخّرين مستحبّة من باب الذكر المستحبّ لا الجزئية، لأنّه كما هو معلوم القول بالجزئية يحتاج إلى تشريع، والتشريع لا بدّ فيه من ورود النص عن النبي أو الأئمّة المعصومين فيه وهو مفقود في المقام.

وهناك القلّة ممّن اعتبرها جزءاً، تساهلاً وتسامحاً في أدلّة السّنن، القاعدة المعروفة بينهم، وقد ردّ الكثير من علمائنا هذا القول، واعتبروا القول بالجزئية بدعة، هذا فضلاً عن أنّ هذه القاعدة لم تثبت أمام النقد كما

ناقشها الكثيرون وناقشناها في بحث مستقلّ، بل كانت السبب في الكثير من العقائد الفاسدة والعادات المتخلِّفة التي انتشرت في المذهب الحقّ.

وثانياً: عند ملاحظة الروايات لم نجد أيّ ذكر للشهادة الثالثة فيها وقد وصلت الروايات إلى خمس وعشرين رواية، ليس فيها ذكر للشهادة الثالثة ونورد هنا بعضها:

*** رواية أبي بكر الحضرمي**

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه حكى لهما الأذان فقال: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل حيّ على خير العمل، الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

وكذا رواية زرارة والفضيل بن يسار عن ابن جعفر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أُسْرِيَ به إلى السماء حكى الأذان (الصيغة السابقة نفسها) والإقامة مثلها إلاّ أنّ فيها قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بعد حيّ على خير العمل..وليس فيها إلا مرتان الله أكبر في أولها ومرة لا إله إلا الله في آخرها. فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً فلم يزل يؤذن بها حتى قبض رسول الله[1] صلى الله عليه وآله وسلم. ويراجع في الروايات الأخرى في كتاب «وسائل الشيعة» باب كيفية الأذان والإقامة.

وأما أقوال العلماء في المسألة فمحصورة بأربعة:

١ـ قول المشهور بأنّها ليست جزءاً من الأذان والإقامة، بل تحرم مع اعتقاد الجزئية، لأنّه تشريع، وتشريع ما لم يشرّعه الله تعالى هو

(١) الوسائل، ج٥ ص٤١٦/ باب كيفية الأذانات.

بدعة وإدخال ما ليس من الدين فيه.

٢ ـ القول بكراهة الشهادة الثالثة مع عدم الاعتقاد بالمشروعية وإلا حرمت.

٣ ـ القول بالحرمة مطلقاً للشهادة الثالثة ولو بدون اعتقاد الجزئية.

٤ ـ ما ذهب إليه المجلسي في البحار(٨١ ـ ١١١) من القول بجزئية الشهادة الثالثة خلافاً للمشهور استحباباً في الأذان واستحسنه بعض المتأخرين وقد صرّح بهذه الأقوال الأربعة في المستند (٤ ـ ٤٨٦).

وسنورد بعض كلمات العلماء بأسمائهم وما ذهبوا إليه بالنِّسبة إلى الشهادة الثالثة:

١ ـ الشيخ الصدوق بعد ذكره فصول الأذان بدون الشهادة الثالثة علّق بالقول: «هذا هو الأذان الصحيح، لا يُزاد فيه ولا ينقص منه، والمفوِّضة لعنهم الله قد وضعوا أخباراً، وزادوا في الأذان «محمد وآل محمد خير البرّية» مرّتين، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أن محمداً رسول الله «أشهد أنَّ عليّاً وليُّ الله» مرَّتين، ومنهم من روى بدل ذلك «أشهد أنَّ عليّاً أمير المؤمنين حقّاً» مرّتين، ولا شكّ في أنَّ علياً ولي الله، وأنّه أمير المؤمنين حقّاً، وأنّ محمداً وآله صلوات الله عليه خير البريّة، ولكن ليس ذلك في أصل الأذان، وإنّما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتَّهمون بالتفويض، المدلِّسون أنفسهم في جملتنا)[1].

وهو كما ترى أيّها القارئ العزيز فإنّ الشيخ الصّدوق وهو من أعاظم علماء الطائفة كما لا يخفى، يقول بأنّ مَن يقول بذلك هو من الغلاة والمفوّضة كما تعلم حكم عليهم بالشّرك في رواية الإمام الرضا عليه السلام والقائل بالتفويض مشرك، واعتبرهم من الذين اندسّوا في مذهب الحقّ

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١ ص ٢٩٠ـ٢٩١.

خطّ أهل البيت، وألصقوا أنفسهم بالشيعة، ودلّسوا في دينهم وزادوا، وهل بعد هذا التصريح يشكّ في مَنْ لا يعتقد بجزئيّتها كما ينشر الغوغائيّون، وإلا فَهُم مزوّرون وجهلة وسنعرف لما هذه القساوة في الحكم عندما أزيد لك في أقوال الأساطين من علمائنا.

٢ ـ ما ذهب إليه الشيخ الطوسي في المبسوط إلى القول: (فأمّا قول: أشهد أنّ عليّاً أمير المؤمنين، وآل محمّد خير البريّة، على ما ورد في شواذّ الأخبار، فليس بمعمول عليه في الأذان، ولو فعله الإنسان لم يأثم به، غير أنّه ليس من فضيلة الأذان ولا كمال فصوله)[١].

وفي كتاب النهاية قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وأما ما رُوِي في شواذّ الأخبار من قول: أشهد أنَّ عليّاً وليّ الله، وآل محمَّد خير البريّة، فممّا لا يعمل عليه في الأذان والإقامة، فَمَن عمل بها كان مخطئاً)[٢].

وهو كما ترى اعتبر العمل به من الإثم والخطأ، لأنّه يشرّع ما لم يشرّعه الله فهو مبتدع وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار.

٣ ـ صاحب اللمعة الشهيد الأول، وهنا استغرب أشدّ الاستغراب من طلاب العلوم الدينية الذين أساؤوا أيما إساءة لسيّدنا الأستاذ المرحوم السيد فضل الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما نعتوه بأقسى العبارات لعدم ذكره الشهادة الثالثة في الإقامة، والسؤال إما أنّهم درسوا اللمعة التي لا بدّ أن يمرّ على دراستها كلّ طالب علم في بدايات دراسته أو لم يدرسوها، فإن كانوا قد درسوها واطّلعوا على قول الشهيد الأول، فهم مزوّرون ومدلّسون لما يحملونه من عقد على هذا الرجل، وإن كانوا لم يدرسوا اللمعة ويطّلعوا عليها فهم جَهَلَة، كيف يمكن أن نؤمنهم على الأخذ بمعالم الدين، وتلك مصيبة

(١) الطوسيّ، المبسوط، ج١ ص ٩٩.
(٢) الطوسي، النهاية، ص ٦٩.

عظيمة تدلّ على عدم التقوى لدى هؤلاء من الصنفين.

فقد قال الشّهيد الأوّل في كتاب الدّروس: «أمّا الشّهادة لعليّ عليه السلام بالولاية، وأنَّ محمّداً وآله خير البريّة، فهما من أحكام الإيمان لا من فصول الأذان، وقطع في النّهاية بتخطئة قائله، ونسبه ابن بابويه (وهو من علمائنا الكبار) إلى وضع الغلاة»[1]. وقد ذكر العبارة نفسها في كتاب اللّمعة الدّمشقيّة.

وقال الشّهيد الثّاني: ولا يقول في خلال الأذان والإقامة: أشهد أنّ عليّاً وليّ الله، وإذا قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله لا يقول: صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ لأنّ الأذان المعهود هو مورد النصّ[2] وقال رحمه الله في شرح اللمعة ج١ ص٥٧٣ لا يجوز اعتقاد ذلك في الأذان والإقامة كالتشهّد بالولاية لعليّ عليه السلام وأنّ محمّداً وآله خير البريّة، أو خير البشر، وإن كان الواقع كذلك، فما كلّ واقع حقّاً يجوز إدخاله في العبادات الموظفة شرعاً المحدود من الله فيكون إدخال ذلك في الصلاة بدعة وتشريعاً، كما لو زاد في الصلاة ركعة أو تشهّد أو نحو ذلك من العبادات، ولو فعل هذه الزيادة أو إحداها بنيّة أنّه منها إثم في اعتقاده.

وقال : وأمّا إضافة «أن عليّاً وليّ الله»، و«آل محمد خير البريّة»، ونحو ذلك، فبدعة، وأخبارها موضوعة، وإنْ كانوا خير البريّة؛ إذ ليس الكلام فيه، بل في إدخاله في فصول الأذان المتلقّى من الوحي الإلهيّ، وليس كلّ كلمة يسوغ إدخالها في العبادات الموظَّفة شرعاً[3].

٤ـ وقال المقدّس الأردبيليّ في كتابه «مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان» (الجزء ٢ ، ص١٨١ـ١٨٢) ، بعد أن نقل قول الصدوق

(١) الدّروس، ج١، ص١٦٢.
(٢) رسائل الشهيد الثاني (ترجمة الشهيد بقلمه الشريف) ٢: ١١٩٣.
(٣) الشهيد الثاني، روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان، ج٢ ص٦٤٦.

المتقدِّم: (فينبغي اتّباعه؛ لأنّه الحقّ ولهذا يشنَّع على الثاني بالتغيير في الأذان الذي كان في زمانه، فلا ينبغي ارتكاب مثله مع التشنيع عليه. ولا يتوهَّم المنع من الصلاة على النبي فيه؛ لظهور خروجه منه، وعموم الأخبار الدالّة بالصلاة عليه مع سماع ذكره، ولخصوص الخبر الصحيح المنقول في هذا الكتاب عن زرارة (الثقة): وصلِّ على النبي كلما ذكرته، أو ذكره ذاكر عنده في أذان أو غيره. ومثله في «الكافي» في الحسن (لإبراهيم)، كما مرّ)[١].

٥ ـ وقال الشّيخ جعفر كاشف الغطاء رَحِمَهُ اللهُ، ليس من الأذان قول: أشهد أنّ عليّاً وليّ الله، وأنّ محمّداً وآله خير البريَّة، وأنَّ عليّاً أمير المؤمنين حقاً مرَّتين، لأنَّه من وضع المفوّضة لعنهم الله، على ما قاله الصّدوق[٢].

٦ ـ وقال المحقِّق السّبزواري: «وأمّا إضافة أنّ علياً وليّ الله، وآل محمّد خير البريّة، وأمثال ذلك، فقد صرَّح الأصحاب بكونها بدعة، وإن كان حقّاً صحيحاً، إذ الكلام في دخولها في الأذان هو موقوف على التّوقيف الشّرعيّ، ولم يثبت، انتهى. أي على النّص ولم يثبت»[٣].

٧ ـ الشّيخ المرحوم محمّد جواد مغنيَّة، قال: «واتَّفقوا جميعاً على أنَّ قول: أشهد أنَّ علياً وليّ الله، ليس من فصول الأذان وأجزائه، وأنّ مَنْ أقرّ به بنيَّة أنَّه من الأذان، فقد أبدع في الدّين وأدخل فيه ما هو خارج عنه»[٤].

٨ ـ وفي كتاب «المستند لزعيم الحوزة العلميَّة السيِّد الخوئي قُدِّسَ سِرُّهُ قال: «وإن كان الإتيان بها (أي الشَّهادة الثَّالثة) بقصد الجزئيَّة بدعةً باطلةً وتشريعاً محرّماً»[٥].

---

(١) الأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان ج٢ ص١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) كشف الغطاء، ج١ ص٢٧٥.
(٣) الذّخيرة ص ٢٥٤.
(٤) فقه الإمام جعفر الصّادق عليه السلام ج١، ص١٦٧.
(٥) المستند كتاب الصَّلاة، ج٢، ص٢٨٧.

٩ ـ وكذلك صرَّح سيِّدنا الأستاذ المرجع السيِّد فضل الله ﷺ، بأنّها ليست جزءاً من الأذان ولا الإقامة في أكثر من بحث له، فقال: «هذا وقد ذهب بعض الفقهاء إلى استحباب الشهادة لأمير المؤمنين عليّ بالولاية بعد الشهادة للنبيّ بالرسالة في كلٍّ من الأذان والإقامة، ولكن لم يثبت عندي استحبابها... كما أنّني لا أجد مصلحةً شرعيّةً في إدخال أيّ عنصر جديد في مقدّمات الصلاة أو أفعالها، لا سيّما وأنّ الفقهاء قد أجمعوا على أنّها ليست جزءاً من الأذان، ولا من الإقامة، وأنّ اعتقاد جزئيّتها تشريع محرّم. وقد أجاد الشهيد الثاني عندما عبَّر عن هذه الفكرة بقوله: إنّ الشهادة لعليّ بالولاية من حقائق الإيمان لا من فصول الأذان»[1].

أي، فكما أنَّك لا تستطيع إضافة ركعة أو قول: أشهد أنَّ عليّاً وليّ الله في التَّشهّد الثَّاني، لأنَّه تشريع، والتَّشريع متوقف على النَّصّ، فمع عدم ورود النَّصّ فيه، يكون تشريعه بدعة، فكذلك لا تستطيع إضافة الشَّهادة الثَّالثة في الإقامة، لأنَّه إدخال جزء لم يشرِّعه الله ورسوله على عباده، بل هي توقيفيَّة يقتصر فيها على ما ورد، ويوجد أقوال أخرى لعلماء كثر على الرّأي نفسه الّذي أوردناه لهم. وللإنصاف نقول إنَّ بعضهم، كالسيِّد الحكيم رحمه الله، تساهل بها لا من جهة الجزئيَّة، بل من جهة قاعدة التَّسامح في أدلّة السّنن الّتي ناقشناها وأثبتنا أنّها خلاف الدين، وأنّ الله ورسوله لم يأذنَا لأحد بهذا النوع من الكذب لهما فضلاً عن الكذب عليهما.

ونقف أخيراً لنتساءل لِمَ كلّ هذا الضجيج البعيد عن التقوى والأمانة العلمية؟ وهل أصبحنا في زمنٍ أصبح الدين فيه مطيّتنا للوصول إلى مآربنا أو لإبعاد الناس عن هذا أو ذاك؟ وهل أصبح المحرّم وإشاعة الفاحشة وإسقاط الكرامات وهدم المروءات التي يهتزّ لها العرش من الأمور

(١) فقه الشريعة، ص٢٩٢.

المحلَّلة بل الواجبة لأجل الوصول إلى الغايات السياسية والعصبيّات المرجعية وما إلى ذلك مما لم يأذن الله به بل حرّمه وتشدّد فيه؟ وهنا أوجّه ندائي إلى العلماء وعلى رأسهم بعض مراجع الدين ومن ثم المؤمنين، أنصفوا الآخرين وكونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، وانطلقوا من الأدلة في الحكم على الآخرين لا من خلال الهوى والعصبية، هذا ما ندين به أم هل هناك دين آخر؟

وهل أصبح ما يمليه علينا المفوّضة والغلاة والقصّاصون والكذّابون والمدلّسون في الدين، هو دين الله وخطّ أهل البيت عليهم السلام وإنّ إنكار ما أدخلوه وابتدعوه وزوّروه هو من الكفر والخروج عن الملّة والدين وإصدار الفتاوى بضلال المنكرين للباطل والبدع، ألا ساء ما تحكمون وإلى الله ترجع الأمور أخالني في زمنٍ يصدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف**».

ظلامة الزهراء عليها السلام وعظمتها

أما كسر ضلع فاطمة عليها السلام سيدة نساء العالمين، فقد ذهب المشهور إلى ذلك ولم يبحثه أحدٌ من العلماء الذين يراعون القواعد العلمية للحديث في بحثه سنداً ومتناً إلا وتحفظ على تلك الحادثة التاريخية كالشيخ المفيد والسيد عبد الحسين شرف الدين، والسيد هاشم معروف الحسني الذي وصل إلى أحاديث الهجوم على الدار ولم يعلّق واكتفى بقوله: «إلى كثير من المرويّات التي لا تثبت أسانيدها في مقابل النقد العلمي»[1] إلى الإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذي قال: «ولكن قضية ضرب الزهراء ولطم خدّها ممّا لا يكاد يقبله وجداني، ويتقبّله عقلي، وتقتنع به مشاعري، لا لأنّ القوم يتحرّجون ويتورّعون من هذه الجرأة العظيمة، بل لأنَّ السجايا العربية والتقاليد الجاهلية التي ركّزتها الشريعة الإسلامية وزادتها تأييداً وتأكيداً، تمنع بشدّة ضرب المرأة، أو تُمَدّ إليها يد سوء، حتى أنّ بعض كلمات أمير المؤمنين ما معناه، أنّ الرجل كان في الجاهلية إذا ضرب المرأة يبقى ذلك عاراً في أعقابه ونسله، فكيف يقتحمون هذه العقبة الكؤود، ولو كانوا أعتى وأعدى من عاد وثمود؟

ويزيدك يقيناً بما أقول إنّها عليها السلام ـ ولها المجد والشرف ـ ما ذكرتْ ولا أشارت إلى ذلك في شيء من خطبها ومقالاتها المتضمّنة لتظلّمها من القوم وسوء صنيعهم معها، مثل خطبتها الباهرة الطويلة التي ألقتها

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، ج١ ص١٣٣.

في المسجد على المهاجرين والأنصار، وكلماتها مع أمير المؤمنين بعد رجوعها من المسجد»[1].

نصل لسيدنا الأستاذ الكبير آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله الذي هذّب ما أفسد من الإسلام وحارب الغلو والخرافة ووقف سدّاً منيعاً في وجه الموضوع والمكذوب، فأحاديث كسر الضلع لم تثبت عنده سنداً ولن نتكلّم فيه بل ننقل الكلام إلى المتن ملاحظين بعده ملاحظات تحتاج إلى جواب من المثبتين:

أوّلاً: تحدَّث السيد الأستاذ بهذه الملاحظة ونحن نوافقه: هل يمكن قبول مسألة أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام جبان إلى هذا الحدّ يقف متفرّجاً على زوجته وهي تُضرب ولا يحرّك ساكناً، ولو فعلها أي إنسان دخل دارك لا يمكن لك مع ضعفك إلا أن تتصدّى له، ولو أدّى ذلك إلى موتك، فللبيوت حرمات، فكيف بالزهراء عليها السلام وبيتها مع ملاحظة أنّ هذا المُعتدَى على داره وزوجته هو الإمام علي عليه السلام الذي يقول: «**لو تظاهرت العرب على قتالي ما ولّيت مدبراً**»[2].

وإن قلت كما ادّعى البعض إنّه مأمور، لأنّه تمسّك بتلابيب عمر وطَرَحه أرضاً ثم قال: «**لولا كتاب من الله سبق وعهد عهده إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلمت أنّك لا تدخل بيتي**»[3] أقول:

أولاً: هذا لم يثبت بسندٍ صحيح وبغضّ النظر عن السّند إذا كان مأموراً كما يُدّعى فهو مأمور بعدم أخذ الخلافة بالقوّة، لكي لا يهرق الدم ويمحو ذكر الإسلام، حيث لا زال فتياً، وهو ما منعه من أخذ حقّه بالقوة وهذا ما أكدته كلماته عليه السلام، ومنها: «**والله لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين**

(١) جنة المأوى، محمد حسين كاشف الغطاء، ص١٣٥.
(٢) نهج البلاغة، كتابه إلى عثمان بن حنيف، ص٥٣٤.
(٣) كتاب سليم بن قيس، ص١٥٠.

ولم يكن بها جور إلا علي خاصة». أما أن لا يدافع عن بيته وزوجته فهذا لا يمكن أن ينهى عنه أحد، لا الشرائع السماوية ولا القوانين الوضعية ولا النخوة العربية ولا الشهامة الإيمانية، فذلك ادّعاء باطل وتبرير أقبح من الذنب.

ثم نسأل سؤالاً هامّاً في المقام، حيث ورد أنّ عمر في اليوم التالي من دفنها عليها السلام سرّاً غضب لعدم مشاركته في مراسم الدفن واعتبر ذلك استخفافاً من عليّ عليه السلام به، فأخذ أبو بكر وجماعة وصعد إلى البقيع لينبش القبر وكان الإمام عليّ عليه السلام قد رسم في الأرض عدّة قبور ليخفي أثره، فلما وصل الخبر إلى الأمير صعد إلى البقيع، منتفخ الأوداج محمّر الوجه، شاهراً سيفه قائلاً له: «**والذي نفسي بيده لو رمت من هذا القبر شيئاً لسقيت الأرض من دمائك**». رُوِيَ في كتاب دلائل الإمامة لابن جرير الطبري: أنّ المسلمين لما علموا وفاتها جاؤوا إلى البقيع فوجدوا أربعين قبراً فأشكل عليهم قبرها من سائر القبور، فضجّ الناس ولام بعضهم بعضاً وقالوا: «لم يخلف نبيّكم فيكم إلا بنتاً واحدة تموت وتُدفن ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفوا قبرها»، ثم قال ولاة الأمر منهم: «هاتم من نساء المسلمين مَن ينبش هذه القبور حتى نجدها فنصلّي عليها ونزور قبرها، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فخرج مغضباً قد احمرّت عيناه ودرت أوداجه وعليه قباه الأصفر الذي كان يلبسه في كلّ كريهة وهو متكىء على سيفه ذي الفقار حتى ورد البقيع، فسار إلى الناس النذير وقالوا: هذا علي بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه يقسم بالله لئن حُوّل من هذه القبر حجر ليضعن السيف على غابر الآخر، فتلقاه عمر ومن معه من أصحابه وقال له: ما لك يا أبا الحسن؟ والله لننبشن قبرها ولنصلين عليها، فضرب علي عليه السلام بيده إلى جوامع ثوبه، فهزّه ثم ضرب به الأرض وقال له: يابن السوداء أما حقي فقد تركته مخافة أن يرتدّ الناس عن دينهم، وأما قبر فاطمة عليها السلام فوا الذي

نفس عليٍّ بيده لئن رُمْتَ وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم، فإن شئت فأعرض يا عمر، فتلقاه أبو بكر فقال: يا أبا الحسن بحقّ رسول الله وبحقّ مَن فوق العرش إلا خلّيت عنه، فإنّا غير فاعلين شيئاً تكرهه، قال فخلاّ عنه وتفرّق الناس..

والسؤال الكبير هنا الذي يدافع عن زوجته، وهي ميتة وليس معلوماً مكان قبرها، فلربما دفنت في حجرتها ويأتي بهذه الحالة مغضباً كما تصف الرواية آنفاً. ألا يدافع عنها وهي حيّة خصوصاً، وأنّه برّر بحسب الرواية أنه لم يأخذ الخلافة مخافة أن يرتدّ الناس عن دينهم!؟؟

ثالثاً: رواية إحراق الدار: لمّا لم يخرج أمير المؤمنين عليه السلام للبيعة (دعا عمر بالحطب والنار وقال: لتخرجنّ إلى البيعة أو لأحرقنّها على مَنْ فيها، فقالوا له: إنّ فيها فاطمة قال: وإن)[1] وهذه الفقرة ثابتة ولا مُنْكِر لها، وقد نقلتها كتب المحدّثين كابن قتيبة وغيره[2] وهذه تُعدُّ جسارة كبيرة على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام الذين عَصَمَهم الله وطهَّرهم تطهيراً ولا يَخفى عليك أنّ الاعتداء المعنوي أشدُّ إيلاماً من الاعتداء المادي، فأنا إذا أشعت كلاماً سيّئاً عن شخص يطال قيمته وإيمانه يتألّم منه أكثر من ضربه كفّاً في المقام، وعلى أيِّ حال أكمل بعض الرواة الحديث: أنّه جمع الحطب وأحرق الباب وأراد الدخول إلى الدار فأتت الزهراء خلف الباب رعاية للستر والحجاب، والسؤال:

١ ـ كم بقي من هذا الباب المحروق وكيف يُحتمى بباب لا زالت النار تشتعل فيه، وألا يوجد عند الزهراء أيّ ثوب أو قماشة تستر بها نفسها وتضعها على رأسها لكي تضطر إلى الاختباء بباب يحترق؟

(١) تاريخ الطبري، ج٣ ص ٢٠٣.
(٢) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج١ ص١٣.

٢ ـ ألا يوجد في تلك الغرفة أيّ مكان للاختباء؟

٣ ـ كيف تبقى بدون ستر وهي تسمع الكلام الذي يدور خلف الباب لأنَّ بابها عليها السلام مفتوح إلى المسجد، والناس داخل المسجد، يبايعون أبا بكر وهي تسمع ما يدور في المسجد.

٤ ـ فضلاً عن رواية تقول بأنّها كانت هي التي تجيب رسول عمر إلى علي عليه السلام ليخرج للبيعة وتقول له: «**يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟** قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة»[1] فمع هذا الوضع كيف تبقى بدون حجاب؟

٥ ـ إضافة إلى هذا فبعض الروايات التي تقول إن أصحاب الأمير كانوا عنده عند طلب البيعة، وكان خروجهم وشيكاً، فهل يعقل أن لا تكون بحجابها وعندها رجال أجانب في الدار؟

رابعاً: يلاحظ أنّ العرب كما يؤكّد صاحب كتاب «جنّة المأوى» الشيخ عبد الحسين آل كشاف الغطاء تستحي من ضرب النساء، لأنَّ ذلك عار يلحق بالرجل وعقبه.

خامساً: لماذا لم تتحدّث الزهراء عليها السلام عن هذا الأمر الهام في المسجد عند خروجها وخطبتها العظيمة أمام المسلمين وأبو بكر وأمام نساء المهاجرين والأنصار إذ تعتبر هذه المسألة مادة إعلامية ضخمة بيدها تستطيع تأليب الناس عليهم بينما لا نرى أيَّ ذكر لذلك.

سادساً :كيف يمكن لمكسورة الضلع أن لا تتألّم وهي تنام قرب عليّ عليه السلام فلا يشعر بها كلّ تلك المدّة ولا يعرف ذلك إلا عند تغسيلها كما يدّعي أرباب العزاء، ونحن نعلم أنّ الضلع إذا كُسر يصعب معه التنفّس فضلاً عن الألم، والأعجب من هذا كلّه أنّ الضلع في زماننا صار عدة أضلع

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج٢ ص٢٥٠.

وأنّها ضربت أكثر من مرة، والأمير لا يعلم بذلك ليزاد في التفجّع وكأنّ الزهراء عليها السلام كانت مضرباً لعمر، كلّما صادفها ضربها حتى عدّ البعض مرات عشراً ضُربت فيها لتكون مادّة عزاء هامة لبعض القراء.

هذا إضافة إلى ما يصوّرونه وإن خرجنا عن البحث هنا من جزع وبكاء قامت به الزهراء وهي التي أوصاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا أنا متّ فلا تخمشي عليّ وجهاً، ولا ترخي عليّ شعراً، ولا تنادي بالويل ولا تقيمي عليّ نائحة**» ثم قال: «**هذا المعروف الذي قال الله عز وجلّ في كتابه ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾** [الممتحنة: ١٢]»[١].

فهل بعد هذه الوصية تكون بكّاءة نوّاحة كما يصورونها حتى ضجّ أهل المدينة من بكائها وحاشاها ذلك، ولا تفعله حتى بدون وصية لأنّها القدوة المعصومة، ممّا لا نرضاه لنسائنا، بل لا تفعله نساؤنا من هذا الصراخ في الليل ليتأذى أهل المدينة فيشكون إلى علي عليه السلام فيبني لها بيت الأحزان بعيداً عن المدينة لتبكي أباها، هل هذه هي الزهراء سيدة نساء العالمين وقدوة نساء العالمين؟ إنّني أتعجّب أشدّ العجب من بعض شيعتها كيف يحطون من شأنها من حيث يشعرون أو لا يشعرون فقط، لأنّهم أدمنوا المأساة والتفجع وظنّوا أنّ هذا يخدم خطَّ أهل البيت عليهم السلام، بل هو أشدّ أنواع الإساءة إليهم عليهم السلام فهذا أمير المؤمنين يقول: «**مروا أهاليكم بالقول الحسن عند موتاكم، فإن فاطمة لما قُبض أبوها أسعدتها بنات هاشم، فقالت اُتْرُكْن التعداد، وعليكن بالدعاء**»[٢].

هكذا نفهم فاطمة عليها السلام تأمر بالدعاء للميّت، وليس النوح والبكاء الذي يُظهر الجزع، وإن كانت بكت ودمعت عيناها بشكلٍ طبيعي، لأنّ أحقّ الناس أن يُبكى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولعمري يصوّرونها بأنّها خرجت

(١) معاني الأخبار، الصدوق، ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج٣ ص٢٤١.

خلف علي عليه السلام بعدما أُخذ مكبّلاً للبيعة، وهذا ممّا لا يرضاه عقل ولا نقل ولا يُتصوّر في شخصها عليها السلام وهي تقول كما يزعمون: «ليست ناقة صالح عند الله بأعظم منّي». ثمّ رجعت جنب قناعها إلى السماء، وهمّت أن تدعو، فارتفعت جدران المسجد عن الأرض، وتنزل العذاب، فجاء سلمان المحمّدي فمسك يدها (كيف يمسك يدها؟؟؟؟) وقال: يا بقيّة النبوّة، وشمس الرسالة، ومعدن العصمة والحكمة! إنّ أباك كان رحمة للعالمين، فلا تكوني عليهم نقمة، أقسم عليك بالرؤوف الرحيم، فعادت إلى مصلاّها، وهل سلمان أعرف منها بالإسلام ورحمته حتى ينهاها عن فعلها وهي المعصومة التي تعلم ولا تُعَلَّم؟

وغيرها من التصاوير العجيبة كأفلام الرعب ثم يأتي إليها أحد الصحابة ليهدّئها (يا بنت رسول الله) وما إلى ذلك ممّا لا يرضاه عقل عاقل. فحاشا لفاطمة أن تكون نقمة، وحاشاها أن يعلّمها أحد من الناس، وحاشاها أن تخرج بهذا الشكل، بل كيف تستطيع الخروج وهي متألّمة من كسر ضلعها كما يقولون، وقد أسقطت جنينها ونبت المسمار في صدرها، وأحمرّت عينها من لطمة عليها، وما إلى ذلك ممّا هو موجود في بعض الروايات.

وعلى كل حال في الختام نقول:

علينا أن نصوّر الزهراء عليها السلام في مراتبها العالية وفي أخلاقها السامية وفي إيمانها الرفيع وفي حركتها الجهادية وفي حمايتها للإسلام وفي حفظها للقرآن والشريعة، لأنّ أشدّ ما ألمّ الزهراء عليها السلام هو أن ترى تراث أبيها نهباً وترابه لم يجفّ بعد وخيانة الأمة لتعاليم الإسلام كما أوضحت في خطابها حيث تقول: «**فَلَمَّا اختارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أَنْبيائِهِ وَمَأْوى أَصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فيكُمْ حَسْكَةُ النِّفاقِ، وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوينَ، وَنَبَغَ خامِلُ الْاَقَلّينَ، وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلينَ، فَخَطَرَ في عَرَصاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ**

الشَّيْطانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرَزِهِ، هاتِفاً بِكُمْ، فَأَلْفاكُمْ لِدَعْوَتِهِ مُسْتَجيبينَ، وَلِلْغِرَّةِ فيهِ مُلاحِظينَ، ثُمَّ اسْتَنْهَضَكُمْ فَوَجَدَكُمْ خِفافاً، وَأَحْمَشَكُمْ فَأَلْفاكُمْ غِضاباً، فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ، وَوَرَدْتُمْ غَيْرَ مَشْرَبِكُمْ.

هذا، وَالْعَهْدُ قَريبٌ، وَالْكَلْمُ رَحيبٌ، وَالْجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ، وَالرَّسُولُ لَمَّا يُقْبَرْ، اِبْتِداراً زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ، أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطَةٌ بِالْكافِرينَ».

ومضت في كلامها الذي كان أشد من الصواعق عليهم إلى أن قالت: «**وَقَدْ خَلَّفْتُمُوهُ** ـ القرآن ـ **وَراءَ ظُهُورِكُمْ**» وهذا عظيم مأساتها وأحزانها لأنّها خادمة القرآن ومجسّدته قولاً وعملاً «**أَرَغْبَةً عَنْهُ تُريدُونَ؟ اَمْ بِغَيْرِهِ تَحْكُمُونَ؟ بِئْسَ لِلظّالمينَ بَدَلاً، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرينِ**».

إنّ أكثر ما أدمى قلبها هو الإسلام، لأنّها عاشت لله ولأجل الإسلام كلّ حياتها، كانت إسلاماً ناطقاً، وقرآناً يتحرّك مع تفاصيل الحياة، لم يكن لنفسها المعصومة الطاهرة الزكية أيُّ قيمة عندها، بل كان همّها الإسلام، ولذلك فإنّ غَصْبَ عليّ عليه السلام حقّه هو الذي خرجت تطالب به من خلال فدك، لا لأجل المنصب بل لأجل الإسلام وتثبيت دعائمه ووضع الخلافة عند أهلها كما أمر الله تعالى.

إنّ أعظم مصائب أهل البيت عندما تتفرّق الأمة عن القرآن، ولا يؤخذ للمظلوم بظلامته، ويُستهزأ بأحكام الدين، لأنّ ذواتهم ذابت في الله لخدمة دينه وشريعته ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[البقرة: ٢٠٧] باعوا أنفسهم لله فما قيمة كسر الضلع أو شجّ الرأس أو ذبح الأطفال في كربلاء وتقطيع الأوصال أو قتل إمام الإسلام الحسين عليه السلام، لقد كانوا فداءً للإسلام وهذا أعظم مصائبهم عليهم السلام.

ملاحظات

بعد كلّ هذا نقول إنّ مسألة كسر الضلع هي مسألة تاريخية لا تتّصل بجانب العقيدة كما يصوّرها بعض الجهلة الذين مرّوا مرور الكرام على العلم، فما استطاعوا أن يفرّقوا بين المسألة التاريخية وبين المسألة العقائدية وبين ضرورات المذهب ومشهوراته وبين ضرورات الدين ومشهوراته، فالذي يقول بكسر الضلع أو لا يقول سيان لا تزيد في إيمانه ولا تنقص من دينه، لأنّها مسألة تاريخية بحتة، فالإيمان بها وعدمه سيان، وإن كانت على شهرة جعلت الكثير من العلماء لا يواجهونها لعدم جرأتهم في المقام، وممّا يُؤسف له، إنّ عدم جرأة العلماء الكبار على مواجهة الكثير ممّا أُدخل في الدين، وأُخذ أخذ المسلَّمات وأُلبس ثوب المقدّسات، أدّى إلى ما نحن فيه من الخلافات وتجرّأت الناس على المقامات واستخراج الفتاوى المضلّلات، إنّ استقالة كثير من العلماء الكبار وخصوصاً مَن تقدّم ومَن بقي ممّن لا جرأة له جعل من الجهلة علماء ومحقّقين ليبثّوا على منابر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الخرافة والجهل والتخلّف ما لا يُحصى، حتى أصبح اللادين ديناً والدين غريباً ومَن يواجه هذه الترّهات يُوصَف بالضلال والخروج عن المذهب بعقلية الحقد البعيدة عن العلم وبسلفية شيعية جديدة.

من كلام للزهراء

وممّا يُنسب للزهراء كلمة عند رجوعها من المسجد وتوجيهها «كلاماً قاسياً» إلى علي عليه السلام، وحاشاها أن لا تكون مؤدّبة مع زوجها وهي التي لم تخالفه منذ عرفته، ولم توبّخه أو تكذب عليه كما جاء في وصيّتها.

ينقل الرواة فيما نسبوه إليها، لمّا انصرفت فاطمة عليها السلام من عند أبي بكر أقبلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقالت له:

«يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة قد ابتزّني نحيلة أبي وبليغة ابني، والله لقد أجهد في ظلامتي، وألدّ في خصامي، حتّى منعتني القيلة، نصرها والمهاجرة وصلها، وغضّت الجماعة دوني طرفها، فلا مانع ولا دافع، خرجت والله كاظمة وعدت راغمة، ولا خيار لي، ليتني متّ قبل ذلّتي وتوفّيت دون منيّتي، عذيري والله فيك حامياً، ومنك داعياً، ويلاه في كلّ شارق ويلاه، مات العمد ووهن العضد،، شكواي إلي أبي، وعدواي إلى ربّي، اللهمّ أنت أشدّ قوّة».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا ويل لك، بل الويل لشانئك، نهنهي عن وجدك يا بنت الصفوّة وبقية النبوّة، فوالله ما ونيت في ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون وكفيلك مأمون، وما أُعدّ لك خير ممّا قطع عنك، فاحتسبي الله».

فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل[1].

والسؤال

ـ هل فاطمة إلى هذا الحدّ من العصبية التي لا تعرف معها مصلحة الإسلام حتى تشير إلى علي عليه السلام أن يخرج لقتلهم ثم تعود إلى رشدها فتصبر؟

ـ هل تتكلّم فاطمة بمثل هذا الكلام المسيء لعليّ عليه السلام وإن عضدها مات وعليّ لا شيء؟؟؟

ـ هل يمكن لفاطمة ـ التي هي معصومة ـ أن لا تعرف أين تكمن مصلحة الإسلام أين؟

(١) المناقب، ابن شهر آشوب، ج٢ ص٢٠٨.

ـ ثم هل علي عليه السلام يُستفزّ فلا يهدأ إلا عند سماع الأذان؟

ـ وهل يخالف الحكم الشرعي في عدم قتلهم لمصلحة الإسلام حتى يختارها في مسألة لا خيار فيها أي بين الصبر والخروج لقتلهم إلى غير ذلك من الأسئلة التي تُثار حول هذا الكلام الذي اعتقد جازماً بعدم صدوره منها عليها السلام لأنّها الأعرف بمصلحة الإسلام، ولأنّها لا يمكن أن يصدر منها الإهانة ولأنّها المعصومة، ولعظمتها أقول حرام أن نسقط أهل البيت عليهم السلام وننزل من مكانتهم بمثل ما ننقله من هذه الكلمات لأنّهم أرفع من ذلك بكثير وأخلاقهم أسمى من أن يصدر منهم إساءة وعصمتهم تمنعهم من الخطأ.

وهناك أيها المؤمن كلمات كثيرة منسوبة تارة إلى فاطمة وأخرى إلى أهل البيت عليهم السلام لا يسع المقام لذكرها، لا بدّ من التوقّف عندها، لأنّ مثل هذه الكلمات تُسقِط مكانتهم وتخالف أخلاقهم ولا تخدم خطّهم ولا القرآن الذين عاشوا كلّ حياتهم من أجل حفظه وتجسيده والتوقّف عند ما قالوه: «**يا معشر الشيعة، إنّكم قد نُسبتم إلينا ما ليس فينا، كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً**»[1].

(١) الكافي، الكليني، ج٢ ص٧٥.

المحتويات

تصدير ٥

المقـدمـة ٧

الفاتحة ٩

شرح سورة التوحيد ١٧

الولاية التكوينية ٢٩

القسم الأول: الولاية ٣١

القسم الثاني: أدلّة القائلين بالولاية التكوينية ٣٧

القسم الثالث: مناقشة أدلة الولاية التكوينية ٤١

قاعدة التسامح في أدلّة السُّنن ٦٥

الـغُـلـوّ ٦٩

بحث في الشفاعة ٧٧

الشعائر الحسينيّة ٨٥

الجـزع ٩٣

كلام حول البدعة ١٠١

مبحـث الأدعيـــة ١٠٧

التوسل والدعاء ١٠٩

باب استحبـــاب الزيارة..... ١٢٣
الزيارة الجامعة ١٣٣
زيارة الأربعين..... ١٣٧
زيارة عاشوراء..... ١٤٣
هل اللعن من ديننا؟..... ١٤٥
حديث الكساء..... ١٥١
مرتبة الإمامة..... ١٥٧
مـوت المعصومـين عليهم السلام ١٦٧
الشهادة الثالثة ١٧١
ظلامة الزهراء عليها السلام وعظمتها..... ١٧٩
المحتويـات..... ١٩١

إنّ سماحة الشيخ ياسر عودى لم يهتم بكثرة الروايات واستفاضتها، ولا بوثاقة الرواة، لأن الكثير من الكَذَبَة والوضاعين والمغالين وأعداء الإسلام والنبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام وضعوا أحاديث مكذوبة على لسان الرواة الموثوقين من أصحاب الأئمة عليهم السلام ودسّوها في كتبهم... معتبراً أنّ الحديث الموثوق هو ما وافق كتاب الله، بناء على القاعدة التي أرساها صادق أهل البيت عليهم السلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «يا محمد ـ في خطابه لبعض أصحابه ـ ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به».